أودية العطش

الكتاب : **أودية العطش**
المؤلف : **بدّي المرابطي**
الطبعة : الأولى 2022
عدد الصفحات : 144
القياس : 14.5 × 21.5
الإيداع القانوني : 2019MO4409
الترقيم الدولي : 978-9954-705-77-3

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : **المركز الثقافي للكتاب**

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

بـــدي المرابطــــي

أودية العطش

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

ترجمة الكـتاب 7
فـي الـبــدء 9
وقَـبـــل 11
وبَعد 15
الأحـد: وادي الصّـمـــت 21
الإثنان: وادي الـنّـــجم..... 29
الثلاثاء: وادي الرّحيل 37
الأربعاء: وادي الصّخرة 45
الخميس: وادي النَّهر 51
الجمعة: وادي الهزيـع..... 61
الوادي السّابع 65
في النِّهـــاء..... 81
في النِّهاء الأدنى 83
في النِّهاء الأقصى 91
قراءة تحليلية بقلم: أ. د. محمد عبد الحي 99

ترجمة الكتاب

... أمّا عن هذا الكتاب وقصّة السّلطان والجَمْع النّزْر، فأحسبُني أَرى الصفات كُلًّا دون التباس. فبينا أنا أتعهّدُ جوارحَ وجهي في وادٍ غير ذي زرعٍ، علّها تكون بقيَتْ كما هي رغمَ الأنينِ والوجعِ، إذْ قلتُ مُنادياً: بأيِّ العينين أَنظر؟

قيل: انظرْ!

فنظرتُ فإذا أنا بِتمثالٍ لا عـينٌ رأتْه، ولا أذنٌ سمعتْ به. في النّحتِ أُمّةٌ وحده. هَرَمٌ عتيقٌ أصمُّ في إطارٍ خائرِ القوام. اسْتكبَرَ فظهرَ هشيماً ستذروهُ الرياح. غيرَ أنَّه بلغَ في الضعفِ شأواً صار معه صلباً لا يَقوى عليه سلطان.

واضطربتُ دونَ سببٍ بَيِّنٍ سوى أنّي رأيتُ الهـرَمَ أجوفَ أشهبَ قد فقدَ الأمَّ والـدم. والتَفتُّ فإذا أنا بِينابيع تُمرئُ التمثال. وأخذَني آخذٌ حيناً فإذا الظلُّ يَتشظّى. وأعدتُ البصرَ إلى التمثالِ فما أبهتُ إلّا والينابيع كاذبة، حمراء قانية.

قيل: ما الينابيع إلا دماء تُمتصُّ.

قلتُ: ظِلٌّ من ثلاث شُعَب.

قيل: سلطانٌ وبطانة. لا ثالث ثلاثة ... والنزرُ بلا ستر.

قلتُ: والضفاف ...

قيل: أصبحتْ كالصّريم.

ثم ارتدّ إليَّ البصرُ فإذا التمثالُ لم يكن.

في البدء

وقَبــل

قلَّتْ السّبلُ. وطالَ السُّرى. واشتدَّتْ الخلوةُ. وخَفيَتْ النجومُ. وبَعُدتْ السّماءُ. وادْلهمَّ الأفقُ. وغَضبَ الموجُ. وأنَّتْ الأرضُ. وأدْمَتْ الجراحُ. وكثُر الوجعُ. ولم يُخرج الليلُ، عدا وجهٍ بلا أنف، إلّا أهوالاً وغمراتٍ صحبتْ الهزيعَ عبر السِّنين.

***

وبَعد

وكان العطَشُ ... ومَسَّنا الضرُّ ...

وكنّا نزْراً يسيراً مُلتحِفاً بالرَّفض. في كلِّ وادٍ نَهيمُ، وعن كلِّ غائبٍ نَسألُ، وإلى كلِّ مجهولٍ نَـتُوق. والسُّلطانُ يَجمعُ الجمْعَ في أدنى الأودية.

السّاعةُ ساعةُ القهرِ. والشاطئُ شاطئُ العدمِ. والذاكرةُ مُتناثرةٌ، خلفَ الهزيعِ السابعِ. كأنها وجودٌ منتحرٌ، أو رجوعٌ صامتٌ، أو موتٌ محض.

كنّا نزْراً نمْتصُّ العطشَ. نَنظرُ السّماءَ تتثاءبُ، والأرضَ تَرقُصُ، أو تَنزِفُ، أو تكتبُ قصائدَ شِعر لحبيبٍ لم يكن.

ونظرَ بعضُنا إلى بعضٍ نظرةً مُترعةً بالسُّرى، فقلْنا للأوديّة:

((لا بُدّ منْ ماء... حِقبٌ مضَتْ ونحنُ لا نَشربُ إلّا العطش))

فامتلأ السُّلطانُ غيظاً وغدراً حتّى أحرَقَ السِّترَ والشوق.

قُلنا:

((لم نكنْ لـ " نَتنزّرَ " وندفعَ إلى الجمْعِ الرّاكعِ والصّمتِ الراقصِ بهذه الكلمات لولاَ أنَّ الهزيعَ انشقَّ عن جبلٍ أحمر من الهلعِ، عبِقٍ بالأمسِ وبِموتِ النّجمِ وبسفنِ اليأس)).

وبدَتْ الأوديّةُ بِلَونِ الشُحِّ خائرةً، تلتهمها أعراسُ الأفاعي. وغمغمتْ:

((السُّلطانُ قالَ للجمعِ في وقتٍ متأخرٍ من ساعةِ الصّفعِ إنّ الرملَ هو عيْنُه الماء)).

ثمّ أكملتْ تنهّداً صِفْراً:

((والسُّلطانُ قالَ للجمعِ إنكم سَـتُجْزَوْنَ الصَّلبَ والرّجم)).

ومضى الجمعُ في الأوديةِ يَشربُ الرملَ، ويَأكلُ الموت. يَـقذفُنا بالحُصِيّ يُدبِّجُ حُروفَ السُّلطان، ويُرتِّلُ كلماتِه بحاراً من العطش.

وجاءتْ فئاتٌ من كلِّ فجٍّ تُقْسِم أنْ ستقذفَنا في جحيمٍ قاهرٍ وبيل.

قال قائلٌ منهم:

((أَقسِموا بالاسمِ الأكبرِ للسُّلطان ينتهي أمرُهم من حينه)).

فردّتْ عليه فئةٌ منهم تحمِلُ أُنوفها مُعفّرةً في أيديها:

((وأيّ اسمٍ تعني؟

إنّ للسُّلطانِ قصراً من الأسماء، كلّها أسماء كبرى، ولا يَعْرف كنْه جلالها إلّا هذه الفئة. ألا فمن شاءَ فليتْبعنا تَتْبعه الرمالُ صاغرةً مُنقادة!))

واعترضتْ فئةٌ أخرى تزحفُ على أدبارِها كأنّها الوحلُ الرّاحل:

((لا... أيّ نفيٍ للحقائقِ وتنكّرٍ للوقائعِ لم يكُنْ ذلك إلّا من شأنِ هذه الفئة وحدها)).

وتفوَّهتْ فئةٌ ثالثةٌ تَلـتَحِـفُ ألسنتَها بغمغماتٍ تناثرتْ في مهدها وماتتْ في لحدها.

ثم اختَلطَ الجمعُ، وتدافعَ الكلمُ، وكبُرَ الخطبُ، لكمةٌ تَتْبعُ لطمة، وهمهمةٌ تتلو غمغمة، حتّى بلغ السّيلُ الزّبى ولامستْ الأرضُ السّماء. حينها وفي لحظةٍ كأنَّ الزمن والكون فيها توقّفا، أو كأنهما سقطا، أخذ صوتٌ ما يملأ المكان. وازداد الأمرُ، وكَـبُرَ الصوتُ. والهديرُ يمجُّ كلَّ الأشياء.

قال الذي له عِلمٌ بالسُّلطان:

((إنّها قهقهةُ السُّلطانِ الحمراء، تلالٌ من الفزعِ الهرِمِ، تُبارِكُ الجمعَ أمراً وفئات..)).

الأحد
وادي الصّمت

ونزلْنا وقتَ الأصيلِ في وادي الصّمتِ قُربَ بابِ السُّلطانِ نتَخفَّى عن أعينه بالعري والعمى.

وفي دهشةِ النزول بَحثاً عن أثرٍ لأهلِ السُّلطانِ في الوادي، أخذَ الوجَلُ ينزفُ بالشكِّ والحيرة.

الوادي خرابٌ يمتصُّ أنفاسَه، تتناثرُ فيه شجيراتٌ سيقانُها من الخورِ، وأغصانُها من الوجعِ، وثمارُها من عنفوانِ الموت.

وفي وسطِ الوادي طبلٌ ضخمٌ منتصبٌ كأنَّه رحى المحال أو قرون الجريمة. والطَّبلُ على قتامةِ لوْنه وشدّةِ إحكامه لا يَستُر ما به فيبدو عمقُه مُنكشفاً بَيِّناً.

وفي داخلِ الطَّبلِ قومٌ يُظلِّلُهم النُّعاسُ... يجرُّ بعضهُم بعضاً. يغرزون أسنانَهم في الرّيحِ ويَضربون ظهورَهم بالمعاول.

قال ابنُ الحاضرة:

((هؤلاء الطبّالون حين يكفّون عن دقِّ الطَّبلِ يَكون هذا شأنهم داخله حتى يعاودوا الدقَّ)).

قال الذي له عِلمٌ بالسُّلطان:

((اللّهم من صعِد منهم الجبل؟))

قلنا:

((ماذا تعني بصعودِ الجبل؟))

قال:

((السُّلطان ليس في الوادي، السُّلطان على رأس الجبل)).

قلنا:

((وأيُّ جبلٍ تعني؟))

قال:

((انظروا خلفَ بابِ السُّلطان!))

ونظَرنا خلفَ البابِ فإذا جبلٌ أشمُّ من الأعضاءِ البشريّةِ المُقطَّعة: رؤوسُ رجالٍ، ونهودُ نساءٍ، وقلوبُ أطفال.

وعلى قمّةِ الجبلِ حشْدٌ من الغلمان والحَشَمِ يَتصَبّبون عرَقاً كأنّه صفيرُ النهاية، يحملون زمرةً يرتفعُ على جباهها السُّلطان يخطبُ، وهي تُصفِّق صمتاً، ليس فيها من ينبسُ ولو سِرّاً.

قال الجُنَّة بن أبي المتيم:

((إنّني أرى الزمنَ حوْلَ هذه الزّمرةِ ينفصلُ عن ذاتِه، إني أراهُ يسافرُ في الويلِ حيث الويلُ بذاته يتَّحدُ)).

قال الذي له عِلمٌ بالسُّلطان:

((ذلك شأنُ الزمنِ حِين يحترق)).

وغرقنا في المساءلةِ برْهةً. حكى بعضٌ وأنشأ بعضٌ.

قال ابن الفارقة عن الغلمان:

((لو شاؤوا لَشربوا من عرقهم المُنصبّ)).

فما إنْ أبصرْنا عرَقهم حيناً حتى تراءى لنا يتخفّى حين ينصبُّ تَحسَبه يَتبدّدُ عَدَماً.

قال بعضٌ عن غلمانِ السُّلطان إنّهم أوجُهٌ له، وقال بعضٌ إنّ السُّلطانَ لا أوجه له إنما يكتفي بأقنِعة. وظَهَر الموتُ كلُّه ينـبُتُ في وادي الصّمتِ وتَتمدّدُ جذورُه في كلِّ الأودية.

قال الذي له علمٌ بالسُّلطان:

((أرأيْتم كيف جَمَعَ في هذا الجبلِ رؤوسَ الرِجالِ ونهودَ النساءِ وقلوبَ الأطفال؟ هذه الزمرة تُذكِّرني آلاماً مُنْغرزة. كنتُ يوماً أحسبُ أنّ للسُّلطانِ وجهاً آخر يَحْملُ كلَّ خيرٍ إلى الناس ولكنّ الناسَ لا تعرفه. كنتُ أَحسبُ أنَّ من الناسِ بطانة تَمْنعه من حَمْلِ البشارة. كنتُ أَحسبُ أن خلْف البطانة وجهاً آخر لا تسدُّ الطّريق دونه إلّا هذه البطانة. وتعرّى الحلمُ بعدُ وبدَتْ المرارة. كان يومَ مكاشفةٍ فظيع)).

قال ابن الحاضرة:

((ما أخالُ السُّلطانَ إلّا قد حلَّ في كلٍّ منا. إنَّه يَمتلك كلَّ القلوب)).

قال الذي له علمٌ بالسُّلطان:

((كلّا، إنَّه قطّعَ كلَّ القلوب. لم تعُد ثمةِ قلوب. أرأيتَ هذه الزمرة التي يَحملها غلمان وحَشمُ السُّلطان؟

تلك الزمرةُ التي يَحْمِلها الغلْمان والحشم همُّها الصمت والتبْجيل. تلك هي بطانةُ السُّلطان تُسبِّحُ بِحمْده وتَذْكر أسماءه ليلَ نهار)).

قلنا:

((وهؤلاء أيضاً يَشربون الرمل؟))

قال:

((أبداً! ألا تُبصرون وترون كمْ جَمَعوا من الرؤوس والنهود والقلوب لِيربوا ويُعظِّموا الجبلَ، وكيف بعد ذلك يحملهم الغلمانُ والحشم؟ إنهم يشربون المزنَ ويمتصّونه حتى لا تَسْقط قطرةٌ من المطر)).

وأَخذنا نزيدُ استتاراً بالعري، نضعُ جلابيبَ من التَجلّي والمكاشفة، خشيةً وتَخوّفاً من حرّاس البلاط. واقتربنا من بابِ السُّلطان لِنسمعَ خُطبته.

قال الذي له علمٌ بالسُّلطان:

((ألا ترون لسانه؟ لقد جاءَ بهذا اللسان من خلْفِ البحرِ ليلقي به خُطبَه خَطْبَه)).

ونظرْنا فإذا لسانٌ يَتدلّى من عينيْ السّلطان، ويُغطّي صدرَه... لسانٌ مُزبدٌ بماضٍ من الأنينِ، والشعبِ القابعِ، والهزيعِ العويل.

وفي اللسانِ قشورٌ من الحروفِ تَتدلّى خلفَ الجبلِ يكبُر فيها مُحالٌ عقيم. ويُزركشُ المحالَ ماضٍ كأنّه تَنادي الهسيسِ المتنافر.

وفي غيومٍ من الصمتِ الأليمِ أخذتْ كلماتُ السُّلطانِ تتساقطُ كَرقابٍ تُقطَّعُ:

((أيُّها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فاسجدوا لي واركعوا!

ألا إنَّ في البـرِّ موتاً وقتلاً، وفي البحرِ رُعباً وهلعاً. مَنْ شاءَ فليصمتْ ومن شاءَ فليَمتْ. كبُر اسمي وتنزّه. ولِأهلِ السُّلطانِ السّماءُ والأرض، ولِبطانتي النهرُ والمزن، ولجمعي الرملُ والقهر.

ألا قاتلَ اللهُ الرّهطَ البغاةَ، ومكَّنني من رقابهم، وسلَّطني عليهم ليكونَ شأنهم الرَّجمَ والصَّلب! أولئك قومٌ كفروا بنعمتي وجحدوها. ألا إنهم لحجّتي دحضوا، ولِشربِ الرملِ رفضوا، فلَهم العطشُ إلى يومِ الدين.

أيّها الناسُ لقد حَكَمنا – وحُكْمنا عينُه الرّشد والعدل، وكلُّ ما عداه باطلٌ لَغو– حَكَمْنا بإرسالِ جيوشٍ جرّارةٍ خلفَ رهطِ الرّفض، وتمزيق جلودِهم إرباً إرباً علَّ ذلك يكونُ عبرةً لمن يَعتبر.

أيُّها الناسُ إنّي أعلمُ أنَّ قوماً مِـمن لا عهدَ لهم ولا ذمّة قد اتَّبعوهم، وأنصَتوا لِهرائهم، وأبوا أن يشربوا من الرمل – والرملُ لذّةٌ للشاربين – وبلغَ بهم التَّعالي والكبر أن طلبوا الماءَ ونادوا بالشفاء. ونحن، عدلاً ورشداً، كنّا حرَّمنا الماءَ، وقلنا إنّه علْقمٌ قاتلٌ لا يلِد إلّا مزيداً من العطش. وإنّي اليومَ، وقَبْلَ الغدِ، لَفاعلٌ فعلتي. وإنّي وكما قال العبدُ الصالحُ لَأرى رؤوساً قد أينعتْ وحانَ قطافُها، وإنِّي لَصاحبها. ألا إليكم بُعثتُ ولكُم بلِّغت)).

ولم تنْته كلماتُ السُّلطان، وهي تلهثُ في طواحينِ الجبلِ، حتّى كان القومُ قد انطلقوا يبحثون عنّا في كلِّ الأوديةِ الدانيةِ والقاصية. واندفعنا نَرومُ موئلاً. فما شرَّقتْ إلا غيومٌ عاقرة.

الإثنان
وادي النّجم

وتَنكّرنا أسبوعاً في وادي النجمِ علَّ جيوشَ السُّلطانِ تضلُّ الطريق. أهلُ الوادي قومُ عجبٍ وغرابة. يُدينون السُّلطانَ بعقولهم وقلوبهم، ويُهلِّلون له بألسنتهم ويُصفِّقون له بأيديهم. يَبتلعون الرملَ نهاراً، ويَشربون دموعَهم ليلاً. يُـرى في جباههم سُكْرُ الغدوِّ وعربدةُ الأصيل.

وهمْ على غرابتهم هذه قَبِلوا أنْ يَستروا وجودَنا بينهم عن عيونِ السُّلطان، وأنْ يُخفونا عن رسلِ الجيش.

ووادي النجم وادٍ عظيم، يتربّعُ فيه نجمٌ كان قد سَقَط وانطفأ في الزمنِ السحيق. وللنجمِ أجنحةٌ من الشوق تترامى في الوادي. قُربَ كلِّ جناحٍ عُلِّقتْ بحِبالٍ من القبولِ جماعةٌ تصْطلي في العذاب والعقاب. كلُّ فردٍ منها يَـخْـتَرق قلبَه حبلٌ يَتدلّى من سدْرةٍ من العدمِ السّافر. ومع ذلك لا نَسْمع نواحاً ولا عويلاً، بل لا نَسْمع بكاءً ولا نحيباً.

قلْنا:

((وما لِهؤلاء؟ أَرَضُوا كغيرهم بالأيّامِ النحسات؟))

قال شيخٌ من أهلِ الوادي يَندبُ ما لم يُفصحْ عنه:

((هؤلاء أهلُ جَوى حاولوا يوماً كئيباً أنْ يُطوِّحوا في ذيول النجم علَّهم يَكشفون عمّا فيه من الشوقِ، فكان ذلك جزاءَهم عند السُّلطان)).

قلنا:

((أَهُمْ من أهلِ الوادي؟))

قال:

((كيف أُجيبُ نفياً وهم من خيرةِ الوادي وفلذاتِ كبده؟ إنَّ آباءَهم وأمّهاتهم هم الذين ستَروكم وآووكم)).

قلْنا:

((ولِمَ بقوا دونَ حراكٍ وأبناؤهم في مقامٍ كهذا من العذابِ والضّنكِ والشقاء؟))

قال:

((لِتلكَ القصة أمرٌ يطول...))

ثمّ والوجهُ منه كظيم:

((أَلَم تروا جبلَ السُّلطانِ كيف ومِمّا هو؟))

قلْنا:

((نعمْ، لقد رأينا)).

قال:

((إنّكم قومٌ تجهلون. أخشى أن تكونوا مثل آبائكم الأوّلين)).

قلنا:

((ومن تعني بآبائنا الأوّلين؟))

قال:

((كلُّ الزّمرِ التي مرّتْ فَكَرَّتْ، فما إنْ شَقَّ عليها الكَرُّ حتى فرَّتْ. أولئك هم الذون سترْنا، وآوينا، وحفَفْناهم بكلِّ تكريم، وسقيناهم بدموعنا)).

قلْنا:

((أبِنْ !))

قال:

((أولئك كانوا أدعياء للرّفض، وهم الآن بطانةُ السُّلطان وأولياؤه)).

قلْنا:

((وهل تحسبنا عصْبةً كَمن مضى)).

قال:

((إمّا التيه وإمّا أن تدخلوا في بطانته، وأنْ تتركونا نسياً منسياً)).

قلْنا:

((سنَسلكُ الرّفضَ مهما تفرّقتْ السّبل)).

قال:

((حبّذا السُّبل لو كانتْ. ما من سبيل. أخشى أنْ تكون الحروفُ عاهرةً، وألحانُها ظافرةً، وأسرارُها قاصمةً، وتظلّ الغيومُ عاقرةً)).

وصمتَ برْهةً، ثم عاد كأنه يقبضُ شيئاً ما في ثنايا ذاكرته:

((نعمْ إنها أحلام. ليسَ لهذه الأرض وأهلها قدرٌ وملاذٌ غير العطش. أنْ نموتَ ليروي السُّلطانُ غليلَه. ذاتَ يوم كنتُ مثلكم ألهثُ خلفَ السّراب. كانت أمنيتي أنْ يَنـزلَ الماءُ، وتهتزَّ الأرضُ وتربو. كانت أمنيتي ألّا يَنتحرَ البحرُ، وألّا يموتَ النهرُ. وأنْ يَصِلَ الماءُ بين الأودية. كانت أَمَانٍ، وما كانتْ)).

وأخذ يبكي بصوتٍ عميقٍ كأنه أنينُ الأرضِ رمّة بموتها وعشقها.

ومضتْ ساعةٌ صيّرتْنا عدماً محضاً. الأشياءُ جميعاً تمرُّ أمامنا بلا معنى هزيلة. تمرُّ أمامنا خارجَ ذاتها فارغةً فقيرة...

ثمّ أفقنا على الشيخِ يصدُّ البكاء:

((أَلَمْ تروا هذا النجم المنتصب؟ لقد استطعتُ يوماً أن أضيئه حتى بلغ نورُه المتفجّرُ ذهباً كلَّ الأودية، وعمَّ بقاعاً، فأرغمني جنودُ السّلطان أن أُطفئه. وجاءَ ابني فتبّينَ فيه حروفاً من السرِّ تَكشفُ شيئاً خَفِيَ، فقتلوا ابني، وحكموا على زوجته جَوى بالرّحيلِ الأبديِّ وحدها، ونفوا حروفَ السرِّ إلى البحرِ البعيد. ثم جاء حفيدي، وكان الشوقُ إلى أبيه الفقيد وأمّه جوى يكاد يقتُله، فأرادَ مع جماعةٍ من أبناء الوادي أن يُطوّحَ في أجنحةِ

النجمِ، فحلّتْ به النازلة. وهو اليوم مُعلّقٌ يتلظّى في غياهبِ العذابِ الأليم.

هل تسمعون نشيجهم ونداءاتهم اليائسة؟))

قلنا:

((كلّا !))

قال:

((ما مَثلكم إلا كَمثلِ حاشيةِ السُّلطان. صمٌّ عُميٌ لا تسمعون شيئاً. الكونُ كلّه تملؤه آهاتهم وصرخاتهم. ذلك هو الفزعُ حينَ يَتعرّى من أسمائه)).

ثم بِجرْسٍ خفيض:

((عيونُ السُّلطان تملأ الوادي وسَتذيقكم طَعْمَ الويلِ الفرد)).

الثلاثاء
وادي الرّحيل

وفي مراسي النّعاس، قُرْب العُدوة المنسيّة بين البحر والبحر، وصلْنا وادي الرّحيل.

أوّلُ منَ تَبَدّى لنا فتاة وحيدة، تُشرِق جمالاً ونبوغاً، تَقْطعُ الوادي طولاً وعرضاً، تَرمسُ ومضاتِ جمالها ونبوغها المُتَفجِّر.

قال الذي له علمٌ بالسُّلطان:

((هذه هي جوى)).

قلنا:

((كان الأَوْلى أنْ يَشفعَ لها جمالُها ونبوغُها عندَ السُّلطان)).

قال:

((ليس في كَلمتكم غير تدليسِ البطانةِ وأوهامِ السّوقة... أوّلُ ما يمقتُه السّلطان: الجمالُ والنّبوغ. هذه المَكْروبةُ محكومٌ عليها، فضلاً عن الرحيلِ الأبديّ، أنْ تَدفنَ أيّ ومضةِ جمالٍ ونبوغٍ تَصدرُ عنها في هذا الوادي)).

ولم يكُنْ في الوادي عدا الفتاة سوى الرحيل. رحيلٌ نراه يتثاءبُ، ويكبرُ، ويتكوّرُ ... يأساً ونحيباً وارتكاساً. لهذا الرحيل سبعةُ أفواهٍ

حريقةٍ يهجو بعضها بعضاً، ويسير بعضها في طريق بعض. نُبصِرُ فيها الرياحَ ساكنةً مُتَّئدةً، والغروبَ راقصاً، والهروبَ نائماً حالماً. كلُّ فمٍ يوزّعُ علينا ابتساماتٍ ميّتةً غريقة. وللرحيل أنينٌ يصدرُ بينَ الحينِ والحينِ نسمعُ فيه خُـطَــبَ السُّلطان وتصفيقَ بطانته، بل وصمتَها أيضاً. ونُبصرُ في هذا الأنينِ كلَّ الأقنعةِ وكلَّ الأوجهِ بقاعاً شاسعةً من الرُّكوعِ والرّعبِ والهذيان، جبالاً مُمتدّةً من الرؤوسِ والنهودِ والقلوبِ المُقطَّعة، أنهاراً من الدماءِ الصقيلة، حشوداً من الحفاةِ العراةِ يَجلدهم حرّاسُ السُّلطان على مَرِّ الزمان. وأبصرْنا طريقَ الرحيلِ فإذا هو حنينٌ بئيسٌ يتفتَّقُ عن تَكوّرٍ دائمٍ نحوَ فجٍّ لا هو البدء ولا المُنتهى ولا بينهما.

كنّا في غمراتِ الحيرةِ وكدْنا نألفُ غصّاتِ الدهشةِ والتيه. أنظَرَتْنا الفتاةُ حيناً وما نظرَتْنا. ثُمّ بهمسِ اللّقاء قالت:

((أَأَهْلُ رفضٍ أنتمْ؟))

قلنا:

((هو كذلك)).

قالت:

((أهلُ رفضٍ للسُّلطان أمْ لِأحدِ أسمائه؟))

قالَ بعضٌ:

((للسُّلطان)).

وقالَ آخرون:

((لهما معا)).

قالت:

((كُنّا عرفْنا بعضَ مَنْ رفضوا أحدَ أسماءِ السُّلطان، فاستبدلَ السُّلطانُ الاسمَ وآواهمْ في حاشيته. وكُنّا عرفْنا مَنْ رفضوا السُّلطانَ فكانَ شأنُهم الرّجمَ والصَّلْب)).

ثُمّ أردَفتْ:

((أنتم تبحثون عن طريقٍ لـمْ يُعبَّد بَعْد، ولنْ تجدوه قَبْلَ أنْ تجدوا أنفسكم. أنا كذلك التَمستُ ذلك فكان شأني الرّحيل)).

ونَظر بعضُنا استغراباً ودهشةً.

قالت:

((لا تَعجَبوا... إنّكم لن تَفقهوا حتى تَغتسلوا)).

قلنا:

((هلاّ أفَضْتِ وجَلّيتِ؟))

قالت:

((هناك في أقصى الرفضِ حين تَغتسلون تَفقَهون)).

قلنا:

((وماذا سَنفْقه؟))

قالت:

((سَتفقَهون أنّكم قومٌ تجهلون. إنّكم السّاعة هذه تنظرون بعيونِ السُّلطانِ وتسمعون بآذانه)).

قلنا:

((قد بلَغْنا في الحيرةِ أقصاها فما نَفْقَه شيئاً ممّا تقولين)).

قالت:

((ذلك أنَّ في آذانكم وَقراً، وعلى عيونكم غَشاوةً. أَتجهلون أنَّ تماثيلَ السُّلطانِ معلَّقةٌ على جباهكم؟))

والتفتَ بعضُنا إلى بعضٍ فإذا بتماثيلِ السُّلطان معلقةً على جباهنا. وعمَّ صمتٌ طويلٌ كَليالي القبور، وأعرستِ الويلاتُ وطبّلتِ السَّعالى. ثُمّ قالت جوى:

((إنّكم تعرفون أوّلَ قصّتي ولكنّكم لا تعرفون آخرها. ولعلّه ليسَ لها مُختَتم. لقد رأيتم النجمَ السحيقَ يَنتظرُ مُنتصباً في وادِيه. إنّ السُّلطانَ يمقته ويمقتُ واديه. السُّلطان يكرهُ كلَّ سرّ)).

ثُمّ بنبرةٍ عتيقةٍ عادتْ إلى الكلام:

((السُّلطان يكرهُ الجهرَ أيضاً)).

وبِعنتريةٍ أَجَبْنا:

((نحن نفلجُ شكيمتَه، ونَكسِر شوكته، وما نراه إلا قد أدبَر)).

قالت:

((هلاّ استحيْتُم فَسَكَتُّم؟ إنّكم تنظرون بعيونِ السُّلطان وتسمعون بآذانه)).

قلنا:

((لا نَفقَه كثيراً ممّا تقولين)).

قالت:

((ألْقوا التّماثيلَ أرضاً وأحرقوها)).

وعادَ الصّمتُ وطال.

ثُمّ سمعنا صوتاً غريباً كأنّه النفخُ في الصّور. وحوله أصواتٌ منه أخفّ. غير أنّها على الأذنِ منه أشدّ. تُغازلُ الرّغاءَ تارةً، والصّهيلَ طوراً ولكنّها أنينٌ ونواح.

الأربعاء
وادي الصّخرة

على صخرةٍ مرميّةٍ بتيهٍ قاص، تُسامرها عصورٌ فانيةٌ مُتراصّةٌ في صفوفٍ منَ الأزمنةِ الضّائعةِ، بَلغَنا أنَّ السُّلطانَ قد نزلَ بنفسه تَحفُّه قرونٌ جاءتْ من خلفِ البحرِ لِتنسفنا نسْفاً.

فأنشدْنا كالثلّة:

((عصيّةٌ هذه الرّمال، وغريبةٌ أوديتها. قصُرتْ، وطالتْ، وجالتْ، وصالتْ، ثمّ وكأنها كما هي تتقلّبُ يميناً وشمالاً لا صادّ ولا رادّ. عطشةٌ والغيوم مترعةٌ. والنهرُ ماتَ وامتلأتْ ضفافه دماً. والحصي تتطايرُ، تتفجّرُ، تدورُ وتبقى حيث هي. غيومٌ ورمالٌ ودمٌ، إنّ الأمرَ لمَبهم !))

***

خلفَ الصّخرة

وتأمّلتُ القهرَ في بقاعِ نفسي السّبعة وخَضْخضتُه حتّى أدركتُ من أمره ما أدركَ من أمري أو كدتُ فإذا بأسمائي جميعاً بِجَليّها وخَفيّها محفورةٌ فيه كأنّها منه مُستقطَعة. قال لي القهرُ: ((انظرْ الصّخرةَ وضرْبَ المرازب)).

فنظرتُها السّاعاتِ الطّوال. ثمّ لم يلبث الخورُ أن امتطاني وأخذ بي ومنّي مأخذاً لا عهدَ لي به. لم أجد في الرحيل غير الأيامِ الراجعة وهي تُقِلُّني وتسوقني معاً.

قال لي القهرُ: ((الحروفُ قَصيّةٌ والعَوْد أولى وهو لكم أحمد)).

وتعالى الصّمتُ وبه استعضتُ.

وحدّثْتني نفسي ناصحةً: ((الصّمتُ أولى)). فما محضتني. إنّ الحديثَ عن الأرضِ أمرٌ يعرف الأيامَ وهي لَه وبِه عارفة. لقد كُتبَ على جوى بما كان فلم تجدْ غيرَ الصّمت. حتى الأودية ظاهرتْ عليها. وأرتْني الأرضُ أديمَها.

قلتُ للأرض: ((أما سألتُكِ قبل أن أخرجَ عنكِ أو فيكِ، أَلَم أناجِك، أَلَم أترجَّك أن تريني اليومَ الأوّلَ والسّاعاتِ الأولى وأن تنطقي بالسرِّ ولو رمزاً؟))

فحدّثتْ الأرضُ حيناً عن الابتلاءِ والبلاءِ وقصّةِ الأسى. وأفاضتْ

عن الأيامِ الفارّةِ والوميض النادرِ الذي فارق. وذكرتْ جوى فلم تُبقِ صفةً من صفاتِ الخيرِ والشرِّ إلّا استحضَرتْها.

ثمّة بتلك الساعة وذاك المقام بصُرتُ بكم. للطّلحِ صمغُه وللنخيلِ تمره ولنا تيهنا. قدحُ ماء ... سألكم هؤلاء، لقد أجهزْتم على رفاقٍ ما سألوكم إلّا قدح ماء، بل رضوا أن تقتلوهم جهاراً نهاراً على أن تحسنوا القتلة. وحدها الدنيّة ما رضوا بِشربها. وأصغتْ لهم ولكم الأرض ولكنها جنّت. وأنصتُّ إلى كلماتكم جمراً يُصبُّ في أذنيّ حيث تفرّ الأرضُ من الأرض. وعلى الأنوفِ المعفّرة لذويكم أبصرتُ فعلَ أيديكم. لكلّ منها أربعةُ أصابع بلا خامس: أصغرهم خنصرٌ جنّيّ يَقتُل ولا يُرى وصاحبه بنصرٌ جهنميّ يَقتُل ويُرى ثم إبرة هي الوسطى تَنـغرزُ فيما لمستْ وسبّابٌ أفعى بالسمِّ ينفثُ.

وصمتُّ صمتاً أوّلَ فما نفعَ الصّمتُ ولا النطقُ. قلتُ لمن لم أرَ: ((أيّها السادرُ اتركني أحدّثك عن أمري، أُتركني حتى أخبرك عن ويلاتٍ تتأمّر في أهلي)). فلم يُصغِ غير أنه زعم أنّ الأمرَ قادم. وقلتُ: ((تعالَ يا صاحبي! تعال يا وليّ!)) فملَّ حديثي قبلَ أن أتفوّه بِبنتِ شفة، واستعطفْتُه صمتاً وكلاماً فما أنظرني ولا ناظرني بل استهزأ ومضى.

وتنابزتُ بالألقابِ مع القهرِ وتمرّستُ بمجاهدته ومناجزته فظلَّ كما بدأ مولعاً بي كأنّه بي ومنّي وكـأنّي به ومنه. وتنطّقَ الصمتُ بضربِ المرازب. ثم قصّ القهرُ القصصَ ليعلنَ طمرَ الأيامِ الأولى ونفي الرسلِ والمعالم. إنّ أمر هذه الأرض لم يترك لأهلها ملتجأ. يا أرضُ ويا سماء

هل من ماء؟ هاهي السّحبُ تحملُ ريحاً والأرضُ ترتوي سراباً. غير أن الصحراءَ على قحطها وجفائِها مترعةٌ بما تكتم. أمّا الأيام فصامتة تحجبُ آهاتِها وهي بها طافحة.

الخميس
وادي النَّهر

وأبصرْنا في ثنايا وادي النهر جسوراً من الأقدامِ مُتهشِّمةً مُتناثرةً، يَتكوّرُ فيها الكرْبُ الهامدُ، والغرقُ الميتُ، في قَعْرِ نهرٍ من السُّبلِ الكظيمة... نهرٌ نراهُ عَدماً يتلظّى، ورجلاً ضخماً سميناً ظلَّ يأكلُ من لحمه حتّى بقي عظاماً نخرةً، وجبالاً من الأحرفِ والنجومِ استحالتْ رماداً يغشاه الذلُّ الحقّ.

وتهادى النهرُ أمامنا علْقماً من القحطِ والرياحِ الغريقةِ، يُمطرُ ضفافَه بِليلٍ بهيم. وحوْله تجمّعتْ أنيابٌ تنغرزُ في الأرضِ، تَزرعُ الأمسَ والهزيع.

ونَظرتْ إلينا جمجمةٌ غريقةٌ في عمقِ النهرِ جاثيةً أشتاتاً، تأكلُ الصمت. ثم نظرتْ خلفها فإذا أثقالٌ من النعاسِ وأفواجٌ من السرائرِ المُبتلاة. ثم عبستْ وأبصرتْ فوقها فإذا غرقٌ تحت، يُنشِد عويلاً فقيراً.

قال الذي له علمٌ بالسُّلطان:

((تلك الجمجمةُ تَمجُّ الحروفَ الصّقيلة. إنّها عيْنُ الهلعِ عند السُّلطان)).

قلْنا:

((ولكنّ السُّلطان يُحبُّ الجماجم)).

قالت الجمجمة:

((السُّلطان لا يُحبّ)).

قلْنا:

((ولكنّ السُّلطانَ يتلظّى ويلاً صرفاً إذا رأى غير الجماجم)).

قال الذي له علمٌ بالسُّلطان:

((أمّا هذا فنعمْ. السُّلطان لا يطيق أنْ يرى غير الجماجم، وهو إلى ذلك لا يطيق أنْ يرى الجماجم. إنّها على مَرِّ الزمنِ تَنفخُ الصُّورَ في أُذنِ السّلطان. وتُحجِّمه أبداً في سَمِّ الكمد)).

قالت الجمجمة:

((أما آن لِلديكِ أن يؤذِّن؟))

قلنا:

((لقد أذَّن الدّيكُ مرّاتٍ فلم يُؤذِّن أحد)).

قالت:

((كنتُ أَعرفُ والنهرُ أيضاً كان يعرف)).

قلنا:

((ولكنَّ النهر لمْ يُصَلِّ))

قالت:

((هل تريدون أنْ يتوضّأ النهرُ بالدماءِ أم أن يتيمَّمَ في اللظى؟ النهر غاض)).

قلنا:

((أما علِمتِ أنّه من خاصّةِ السُّلطانِ ومُقرّبيه؟))

قالت:

((إنّكم قومٌ تجهلون. ألَم تعرفوا أنّ ذلك قناعُ النهرِ وليس وجهه)).

قلنا:

((ولكنّ للنهر منابعَ وعيوناً)).

قالت:

((أما رأيتم أنّها جفّتْ ونضبتْ حتى طحاها العطش، أَعميَتْ أبصارُكم أم خَتَم على قلوبكم الخوفُ والرّعبُ؟))

قلنا:

((ولكنَّ للنهر ضفافاً تُنبِتُ زرعاً)).

قالت:

((تُنبِتُ النسيانَ ورؤوسَ الشّياطين)).

وأنَّتْ. وتأوَّهتْ طويلاً. ثمَّ أطرقتْ. ثمَّ نطقتْ:

((إنّكم تُبصرون نهراً ميتاً، يتحرَّك ساكناً، ويتهادى طريحاً. رحِمَ اللهُ النهرَ كان يوماً في عنفوانِ شبابه يَحْلم أنْ يتزوَّج الشّمسَ. يُـلقي أمامها غزَله كلَّما طلعتْ، ويبكي بكاءَ لوعةٍ وتوجّعٍ وشوقٍ كلّما أخذتْ تغرب. يَبيتُ يُناجيها في سَمَره. يشربُ الشايَ مع الفولِ والفستقِ والنخيل. كان

ينتظر أنْ يتنفّسَ الصّبحُ ليحملَ آمالاً وأحلاماً يبذرها في ضفافه، ويُوزّعها على أخلّائه. ومات النهرُ يَكتم سرّه، وماتت أحلامه)).

قلنا:

((الأحلام لا تموت!))

قالت:

((لقد خلا من قبلكم قومٌ قالوا أكثر من ذلك، وهمّوا أنْ يصعدوا قمّةَ الجبلِ فسقطوا وكانوا أسفل السّافلين)).

قلنا:

((نحن نريد أن نُفجّرَ أنهاراً، ونَخلق قمماً، لا أن نصعدَ قمماً سبقتْنا)).

قالت:

((أما تروننني جمجمةً مُلْقاة؟ هل تحسبونني كنتُ كذلك؟ لقدْ ركبتُ الأملَ حتى تحوّلَ يأساً، وتعلّقتُ بالسماءِ حتى سقطتْ أرضاً، وأبحرتُ في النهرِ حتى استحال عطَشاً. ثُمّ كان ذلك اليومُ العبوسُ القمطريرُ الذي أبصرَنا فيه السُّلطان. لقد رأيتُ يومَها الوحلَ المُوَلوِلَ يَتجلّى طريقاً وحيداً، وانغَرز فيَّ الجمرُ وَشْماً مسْفراً)).

قلنا:

((وحرَّمَ عليكِ أنْ تُبحري في النهر؟))

قالت:

((وهلْ تركني حتى أُبحر؟ لقد قطَّعني إرباً إرباً، ومزَّق النهرَ شرَّ ممزق. ثم رماني قطعةً من الألمِ المكتملِ حتى تواريتُ هشيماً من الجراحِ النتنةِ والعويلِ الأبتر. رحِمَ اللهُ النهرَ ماتَ يحْمِل سرَّه)).

وفي حين كان الموتُ العدوَّ والصديقَ، رمقتْنا الجمجمةُ وصاحتْ حتى اغتسلْنا بصيحتها:

((هاهي زبانيةُ السُّلطانِ أقْبلتْ)).

وأنصتنا برهةً. ثمَّ صلَّينا على أنفسِنا صلاةَ الغائب. ونَظَرنا فإذا عواصف قاضية، وسمعْنا نقعاً أحمقَ وهمهماتٍ فارغة. وشبَّ اللَّهبُ حُطمةً تتفجّرُ موتاً فصيحاً... تُحيط بالوادي فيُسابق بعضها بعضاً. ورغم ذلك لمْ يكنْ لِلَّهبِ منْ ضوء.

وامتلأ الأفقُ دخاناً هزيعاً يقضِمُ الفوقَ ويجترُّ ذاتَه عمداً ممدّدةً بَنَتْها صلواتٌ حريقة.

قالتْ الجمجمة:

((لِتختبئوا في أنفسكم ولِتلْبَسوا ذواتكم، أما ترون أنَّ هذا اللهب بلا ضياء؟))

قلنا:

((ولكنَّ له دخاناً)).

قالت:

((ما لا ضياءَ له دخّانه عابرٌ ومُنْته. فرْقٌ بين عبورِ الدخان وعبورِ الضّياء، وبين انتهاءِ الدخانِ وانتهاءِ الضّياء)).

قلنا:

((وأين نحن منهما؟))

قالت:

((أمرُكم فيه دَخَن)).

قلنا:

((وهلْ بعدَ هذا الوهَن من نفَس؟))

قالت:

((أيّة جماعة رفض أنتم! هلْ غشيَكم الارتكاسُ والارتداد؟ إمّا أن تُلقوا وإمّا أن يُلقي اللّهب)).

قلنا:

((وكيف نلقي؟))

قالت:

((أن تغالبوا اللَّهب)).

وتهاوينا نَندبُ وجودَنا. وطوّحْنا يميناً وشمالاً يرتمي بعضنا على بعضٍ، وينكِر بعضُنا بعضاً. ثمّ عدْنا إلى الجمجمةِ عساها تُجلّي. قالت:

((كم أَحرقَ هؤلاء وكمْ غرّبوا! إنّ الزّبانيةَ يأسٌ يمتطي اللّظى)).

قال الذي له علمٌ بالسُّلطان:

((أنتِ أيضاً غَضضتِ البصرَ عن سَحْلِ البلادِ والعباد)).

قالت:

((ومن ظنَّ أنّي سكتُّ ؟))

قال:

((أنتِ اخترتِ الصّمتَ ككُلِّ الذين اقْتيدُوا معكِ إلى النهر)).

قالت:

((إنَّكَ ممّن لا يقرأ لغةَ الصّمت. إنّني أتحدّث صمتاً)).

قال:

((مضتْ عقودٌ والناسُ كلُّها تأملُ في لغةِ الصّمت. مضتْ عقودٌ والناسُ لا تقرأ ولا تسمع إلّا الصّمت. مضتْ عقودٌ والناس تهلكُ بلغةِ الصّمت. السُّلطانُ لا يقرأ لغةَ الصّمت. وهو إلى ذلك لا يقرأ أيّ لغة. يمقتُ الكلامَ، كلَّ كلام. لذلك ابتدعَ وادي الصمت. خُطَبُ السُّلطانِ الأليمةُ قِطَعٌ من الليلِ المظلمِ هي الصمت، أو أولى بها أن تكون إيّاه)).

قالت:

((ليس لي إلا الصّمت)).

ثمّ أخذتْ تبكي.

وأخذْنا نَختبئ في أنفسِنا ونَلبسُ ذواتنا، كأنّنا صبايا هناء مُدلّلات يَنسفهنَّ الفزعُ بلا مقدِّمات. ثُمّ هممْنا أن نلتهبَ فعجزنا ووقعتْ الواقعة.

الجمعة
وادي الهزيع

وأدركَنا النومُ قبلَ استواءِ الليلِ في وادي الهزيع، فأخذَ البحرُ يلتوي ويهتزُّ ويمتصُّ ذاتَه، ثُمَّ يتناثر امِّحاءً. وخلْفه الغيومُ تملأ المكانَ والزمان وتُنشئهما. تَكتَنِهُ الفضاءَ وتطوِّحُ فيه. ثمَّ تُقيل الرِّمالَ الجاثيةَ حتّى تضاجعها. كانت ساعةً هي المتاهة الصّريحة، بفظاظةٍ وفظاعةٍ صافيتين نقيّتين كأنّما بعضهما من بعض. الكونُ كلُّه استحالَ قِطَعاً من المُحال النّائحِ تترامى في أرجاءِ ذاتِها وتَكْتبُ التفاهةَ بحروفٍ سافرة. والموجُ يَنطقُ ويرقصُ في مأتمٍ هو رحِمُ النّواحِ والفزع: تنطلقُ منه جبالٌ جزْلةٌ من الجراحِ الغائرة.

لا النّابلُ انفصل عن الحابلِ ولا رَجع عن الشطّ.

هكذا تتربّعُ المأساةُ الظافرةُ غرقاً ثابتَ الأقدام، مُتَّئد الخطوات، يَمْثُل فرعُه في أصله، حتى تتساقطَ المدائنُ الخارقةُ في الزمنِ الغالب، ويتنامى المساءُ الراقصُ في المآتم في كُلِّ جنْبٍ من قممِ المتاهة، ويكتملَ الانكدارُ والانفجارُ، وتنخرمَ شِدّة الأمّة الهاويةِ في أقصى الوادي المنسيِّ بين سبعة بلا بَدءٍ ولا مُنتهى.

أبصرْنا، فإذا الخوارق المارقة في مستوى الغياهب المستعِرةِ بالرّكنِ الميت تلْتَحفنا. ثمّ أخذْنا نَنْظرُ ما لمْ يكنْ، فإذا المدائنُ نسيتْ الأودية، وانفطرتْ في آخر الوجودِ حيث الوجودُ بذاته يلتحمُ.

تأخذُ النظرةُ بقاعاً هي إلى الظلِّ الخائرِ أقرب. ثمّ تتناثر المطارقُ المستحيلةُ في ساعة المُترف الذي لم يكن. ذلك العجب. ثمَّ أطرقنا، فإذا المغارات السابعة غافلة عن النشيد البحريّ، أو هي ظامئة ترتاب فيه. وفي النظر إلى المغاراتِ تراءتْ عُصبة هي الطبق القاتل. ثمّ سألنا العُصبةَ عن سرِّ التّنادي فانهملتْ كالسَّيلِ المنحدِر في الحـلُم طارقةً عابرةً. والتصقَ الأفقُ بالنّيزك المرِّ، واصطلى في المناجاةِ الملتهبة في الأقصى.

وخَرج من الأرضِ قوْمٌ لا عظام لهم، إنّما هُمْ جلودٌ سمينةٌ تمتصُّ الموجَ مدّاً وجزراً، تخترقُ العرائسَ الفارغة.

بين هؤلاء القومِ والعُصبة قطْعةٌ من الهزيعِ البهيمِ يُرى فيها الرحيلُ الهائمُ في العدمِ الغارقِ، والتناثرُ المُتطاولُ في المُساءلة المرتدّة، وانكدارُ التَّماثل المستعدِّ للرّكوع المنفي.

وشِمال القطعة لحظةٌ تائهةٌ قد التحفتْها الأوديّة وتماهتْ معها. يبدو في اللحظة النجمُ السّحيقُ وقد هلَّ مثْلَ الصّلاةِ الحريقة. ثمَّ تبدو جوى تحمِلُ في الفزعِ والوجع مدائنَ من المآسي. وفي أقصى الموكبِ يبدو النهرُ هزيلاً يَجرُّ عظامَه.

الوادي السّابع

مَضيْنا بالوادي السّابع قُدّامَ جنودِ السُّلطان يضرمون النّارَ التي سنُرمى فيها أَمامَ الجموع، بَيْنَ تَلّين أحمرين، فالسّماء عنهما في ابتعادٍ، وهما خلْفها في تطاول. للوادي ألوانٌ وأحوال. قد أشبه ذاته وأشبهتْه حتّى خِلْناهما شيئاً واحداً. وفيه أَلْسنةٌ تَلتحفُ الجفاءَ والبلاء. تترامى حوْلَها بقاعٌ من النّفي هي الويلُ في يرعانه. حينها أخذتْ أوهامٌ وأرواحٌ تائهة تمرُّ أمامنا.

***

المجنون

أوّلُ الأوهامِ مجنونٌ. تبيَّناه في هالةٍ تتقاربُ وتتدافع. خلْفه عذراءُ صامتة. أَخَذ المجنونُ مُقْبِلاً مُدبراً يقول:

((من يعبُّ من كأسي يرى ما أرى ويَنْتَه. من يُحبُّ يُبصِر. أولى بالعالمِ أن يرحلَ، وأولى بنا نحن أن ننتحرَ. ليس لي في الحياةِ أية رغبة، ومن ذا الذي يرغبُ في الشقاء؟))

قال ابن الحاضرة للمجنون:

((وكيف أعُبُّ؟))

فأجاب المجنون:

((خطواتٌ أربع: شُربٌ، وارتواءٌ، وسُكْرٌ، وتَجلٍّ. ولكنْ لا أحسبكَ تريدُ الانتهاء)).

قال ابن الحاضرة:

((أريدُ الابتداء)).

قال المجنون:

((ذلك ما بدا. لا أرى عليكَ علاماتِ الانتهاء والذي يَعبُّ يَكملُ انتهاؤه)).

ابتسمَتْ العذراء لكلام المجنون. وخاطبَنا هو:

((في المقاماتِ الغارقةِ في التكاشفِ يقفُ حُبّي وحيداً. سأَشربُ حتى

تَمتلئ المقاماتُ عطَشاً. ساعَتها تروْن من أنا. هلْ تريدون أن تَعرِفوا من أنا؟ كيانٌ تافهٌ ولكن لستُ أرى في الأرضِ غيري سلطاناً. ليس لكم وجودٌ. أنا وحدي الموجودُ والوجود. أنا أنا. من يَرَني يرَ العوالمَ الحَقّة، ويَر الأبّهةَ الكبرى في ساعةِ النشوة، ويرَ الإبحارَ إلى جزيرةٍ بعيدةٍ ليسَ لها شاطئ. جزيرةٌ أعبُّ فيها من كأسِ العشقِ الأعظم، وألتَحفُ ذاتي، وأكون لأكون. سلطانٌ أنا فيها، أُطوِّح في المنتهَى، وأستوي عدماً هو الوجود. من يعْرفني يَعْرف أنّي لستُ إلّا من رقيق سلطانٍ هو عينه من رقيق. لولا هذه الفاتنة لَتعرّيتُ لكم حتى تعرفوا من أنا. لولاها لَقلتُ لكم سرَّ السُّلطان)).

وسكتَ وسكتْنا. ومرّتْ ساعاتٌ على عُسْر. ثمّ قال الرَّجلُ والكلماتُ تتدافعُ من فمه:

((أنتم أيضاً مثلي. حشمٌ وخدمٌ أنتم. تعالوا معاً لِنعبَّ من الرَّملِ ونَسكت!

أتعرفون الفرْقَ بيننا والسُّلطان؟ كلُّنا رقيق وغلمان. بعد ألفِ ليلةٍ تأبى الليلةُ ما بعدَ الألف أنْ تنتهي. إنّها تستحيلُ أبداً مَحضاً. والحرفِ وبه أُقسم لو كان السُّلطان نظرَ إليَّ ساعةَ المكاشفةِ وأنصتَ لِلعصافيرِ لَكان سافرَ إلى الجزيرةِ البعيدةِ وكفاكم العناء))

***

العذراء

انتصبتْ العذراءُ عاريةً كالحقِّ. قالتْ:

((إنّ المدائنَ قدْ خارتْ وتاهتْ. أذكُرُ ذلك الشّتاءَ البعيدَ حين كاد كلُّ شيءٍ أنْ يُصبح شيئاً، يومها ناديتُ على القلبِ أنْ يَخفقَ، فخفَقَ، ولكنّ صاحبَه هربَ، وبالشّتاءِ الْتحفَ، وفيه لِدمعهِ هَرق)).

قال ابن الحاضِرة:

((الشتاءُ يَسبقُ الربيعَ. ذلك تعاقبٌ لا رادَّ له)).

قالت:

((منْ يَقبلُ بالشتاءِ يَظلُّ في الشتاء، ومن يَتوقّف في البحرِ يَغْرق. عجِبتُ لمن يَضْرب في الأرضِ حيناً، كيف لا يرى الأوديةَ والجبالَ، وكيف لا يَسمع أحاديثَ العصافيرِ، وينصتُ لأناشيدها؟))

ثم بِصوتٍ كالحـلم قالت:

((وفي الغسقِ أُبصرُ روحي تُسافرُ بعيداً فتتقهقر ولكن لا تـمَّحي. انظروا في المرايا المتكسِّرة تُبصروا ذلك الهارب المجهول الذي كان أمَلاً فانْكَتم)).

وتوقّفتْ حتّى حجَبها الصمتُ وقد مَثُل. قالت:

((كأنّي بكم لمْ تَنظروا بعد ذواتكم. ألا إنّها عاريةٌ تَستجير بِكُم)).

وزادتْ في همْسٍ تائه:

((ثَمّة مسافةٌ تَتطاولُ وتَتهادى كأنّها تَنزفُ ألماً يتساقطُ كالصَّخرِ الهامد. فيها الجريمة تَحبلُ بِذاتها، وتَتمخَّض عن نشوئها، تَكبر في الغُدوِّ حتى تُسائل عن كونها: أَفي المساءلةِ نَمَتْ وكَبُرتْ؟ أم في الصمت سافرتْ واستقرّتْ؟ ليسَ للهزيعِ إلّا أنْ يتضافرَ ويزهو. فما كان له انتهى له، وما فيه انغرزَ فيه، وما عداه نشأ مِنْه. وإنّه لَهزيعٌ يَشملُ، يَحفُّ، يَضمُّ، يَقضمُ)).

قال ابن الحاضرة:

((الهزيع سِتْرٌ وظلٌّ)).

فَردَّتْ العذراء:

((السِّترُ مكاشفةٌ أوّلاً. السِّتر إبصار)).

ثم خَتمتْ وهي تنظر إلى نهديها:

((تموت الحُرّة ...))

***

ومضتْ برهةٌ مليئةٌ لم نكنْ ندري فيها أَرَمانا السُّلطانُ في اللَّظى أم أَنْظرنا حيناً؟ ثُمّ في ساعةٍ هي المُنتهَى البادئ ظهرَ في مستوى الأُفقِ المجنونُ يَتْبَع العذراءَ، يَنحدران خلفَ عجوزٍ مَخفيّةٍ بسفحٍ ينطفئ في

شاطئِ البحر. العذراءُ صامتةٌ بلا حضور، والمجنونُ يَبْكي، ودموعُه تتساقطُ غدَقاً. وأخذَ المجنونُ يغازلُ الموج.

ورَنَتْ إليه العذراءُ ورنا إليها. وهَمَّتْ به وهمَّ بها، لولا أنْ رَأَيا الفصالَ يلتحفهما مُمتدّاً، صادّاً، رادّاً كلَّ وصال.

قالت:

((لمّا كنتَ إيّاي، وكنتُ إيّاكَ، ولَفظتُ غيركَ، ورفضْتَ غيري، ورأينا العزلةَ مطْلباً للوصال، والوحدةَ مولداً للتوحُّد، اعتقدتُ وإيّاك أنّ الحينَ حان، وأنّ اليقينَ حَضَر. فما كان الحينُ ولا اليقينُ إلّا أجلاً لِانقشاع وهْمٍ قديم)).

وأنصتَتْ له علَّه يُجيبُ، فلمْ يزدْ إلّا صمتاً، لا لأنّه غائبٌ بذاته عمّا تقول، إنّما هو غارقٌ، مُكْتفٍ بما سَمِعَ. كأنّه به ثَملٌ.

قالت:

((لمّا بقينا وجهاً لوجه إذا بِكِلَيْنا يريدُ أنْ يَنفصلَ عن ذاته. يُريد أنْ يَتمزَّق...

كأنّي أفرُّ منكَ كيْ لا أكون، وكأنّكَ منّي تفرُّ كي لا تكون. إنّها النهاية قبل المنتهى... إنّي أراني عن ذاتي أنفصل)).

قال:

((لو كان لنا ذلك لَجاءَ الانفصالُ مانِعاً من الفصال)).

قالتْ:

((هلْ تراني أصيرُ إلّا الكيان الذي كنتُ، وهل تصبح أنتَ إلا الطّينةَ التي كنتَ؟))

قال:

((ما أنتِ بالتي كنتِ من قبل؟))

قالت:

((هل تعني أنّكَ...؟))

قال:

((لا أعني إلّا ما قلْتِه أنتِ ذاتكِ. أعني أنّ الحينَ واليقينَ بَدّلا ما كنّا نظنُّ ونَحسب)).

وأنصتَ لها، فأنصتَتْ له حتّى بلغا في التمادي شأواً. وزاد الشبَهُ بينَهما أنْ تَعرّى هو فَلمْ يُبقِ في الستر من جسمه شيئاً.

ثُمّ في زمنٍ كأنَّه انفصالٌ عن الأزلِ والأبد بَدَت العذراءُ صامتةً والمجنونُ باكياً يسيران لا ثالثَ لهما إلا غيومٌ تُغطّيهما عاطشةً، وتلالٌ تَحفُّهما لاهثةً، وبحرٌ يُحاربهما عاقراً، وكلُّ شيءٍ يمتلئ عدماً محضاً.

قال ابن الحاضرة:

((حين يقف الهزيعُ هذا الموقف ويصلُ ذروته فماذا نستطيع أن نرى ؟))

قال ابن الفارقة:

((مثلكَ ليس بالذي يَرى. مثلكَ حُجبَتْ عيناه وفي أذنيه وقرٌ. مثلكَ يُردِّدُ ويُوَلوِلُ ويُصفِّق)).

قال ابن الحاضرة:

((إنّكَ لَما عجزتَ عن مُكاشفة السُّلطانِ وجهاً لِوجه بما هو أهلٌ لِسماعه انقَلبَ عجزكَ قُدرةً على تقريعي)).

***

العجوز

وقفَتْ العجوزُ تَخطُب أمامنا، قالتْ:

((هلَّتْ ساعةُ الامِّحاء من دقِّ الناقوس فأخرجتْ الأرضُ البدء. جوى أمّةٌ وحدها. فإنْ تُبصروا تَفقهوا)).

ونظرتْنا مليّاً وهي تبكي وتزداد بُكى حتى اتّحدنا مع الدموع، ثُمّ قالت:

((اضحكوا قليلاً وابكوا كثيراً)).

ثُمّ أَردفتْ:

((وهذا الزمن الذي تجُرُّون، أفلا تَرون فيه قَرْعَ السُّلطان؟))

قال ابن الحاضرة:

((ليس ثَمّة بُدٌّ منه)).

قالت:

((كأنّكَ تعني أنْ ليس ثَمّةَ بُدٌ من السُّلطان، فلعلّكَ عازمٌ أمركَ على وصاله)).

وتأوّهتْ العجوزُ سبعَ آهاتٍ طويلةٍ غائرةٍ كالفزع. وغابتْ في الأفق بُرهةً. ثُمّ عادَتْ، وعمرُها القاسي جاثمٌ على جبينها. وصعدتْ بِخطى أليمةٍ على سفح جبلٍ من عويل الليالي الطريحة.

قالتْ:

((غُرباء أنتم، والوجعُ يهُدُّكم. طوبى للغرباء. طوبى لِجوى!))

كانت العجوزُ تلبس ثياباً طالَ عهدُها وتَقادم، أسمالاً بالية. فَتلتحف ببكاءٍ بلا لونٍ، وبأرضٍ مرميةٍ متناثرة، وبحروفٍ نفدَتْ غيلة، وبآمالٍ طريحة. يُحيط العجوزَ ألـمٌ يَنزفُ فلا يَكفُّ، ويزيدُ فلا يخفُّ. فكـبُرَ الأنين حتى خرج ذاتاً ذاتَ شأنٍ وبأسٍ شديد.

قالت:

((فهذا الذي رأيتمْ هو عينه الفزع. أوديةُ العطش قَدَرها عجَبٌ. ستسيرون حتى تروا الهلعَ الفرد. وإنّ بعضكم ممّن قد بانتْ وجوههم لَأشدّ على الرفضِ من السُّلطان. أولئك كنّا عرفناهم فتبينّا أمرهم. وكَأيّ من رهْطٍ خَرَجَ وخَطَبَ هرجاً ومرَجاً ثُمّ أصابه الوهن منْ بعدُ)).

قال ابن الحاضرة:

((هلاّ كشفتِ فكفيتنا شرَّ الشكّ؟))

قالت:

((ليس في الشكِّ من شرٍّ لو كان وجهاً من أوجُه اليقين)).

وأوشكَ ابنُ الحاضرة أنْ يجيبَ، ثمّ أمسكَ. وانصرفَ حِيناً، وعاد.

قالت:

((هذا الطريق ليس عنه رواح والتيه له صفة. كلُّ الطّرُق المطروقة، كائناً ما كانت، إلى التيه تنتسبُ. لكلِّ أحدٍ أن يشقَّ طريقه بنفسه، وأنْ

ينهيه حيث يريد. شقُّ الطريق أشقُّ ولكنّه سابقٌ على الطريق وهو أصْلُها. الطريقُ ذاته عدمٌ، وفي شقّه تنحصرُ الأهدافُ نُبْلاً وشرفاً. أما إنّي أرجوكم أن تنظروا الأفقَ وتُبصروا ذلك النجمَ الثاقب والنيزكَ الطارق. إنّهما حابلان بغير ما قد ترون. وخلفهما تتلألأ عوالم هي لكم إنْ سبقتموها وهي عليكم إنْ طلبتموها. اختاروا بين التكسّبِ والكسب، أنْ يكون لكم أو أنْ تكونوا. هنالك يتحدَّد طريقُكم، ويتكشَّف شأنكم.

في الوادي العتيق، سقطَ نجمٌ في الزمن السحيق، فهلْ مِنْ أنجُمٍ تَطْلب الثّأر؟ إنّي لا أكشِف عن طريقٍ ولكنّي أريدكمْ أن تشقّوا طريقاً. إمّا أن تختاروا أن تتعلَّقوا بالنيزك يسْقط أنَّى شاء، وإمّا أن تحملوه وتضعوه حيثُ شئتمْ)).

وانهملتْ دموعها دُفعةً دون أن تَقطع استرسالها:

((الجَمالُ عند السُّلطان جريمةٌ، ووجودُ السُّلطان جريمةٌ في بحبوحةِ الجمال والنبوغ. تلك مأساةُ جوى. سبيلُ الرفض عسيرٌ، ذلك أنّه حَمْلٌ للنيزك لا تَعَلُّقٌ به، ذلك أنّه نفيٌ للذات من حيث هو إثباتٌ لها في عالمٍ من النفي.

عجِبَ العاجبون للزّاعمة، زعموا للجموع أنّهم رفضوا، ثُمّ خضعوا. وما كلُّ مَن اِلْتَحَفَ الرّفضَ رافض. وما كلُّ مُدوَّرٍ كعْكٌ. هي الجموع خانعةٌ، للسُّلطان خاضعةٌ، يمضغها الرّكوع خاشعةً، يقتلها الجوع، والزّاعمة تنهشها نهش الأسود الضّارية)).

***

الجبل

رأينا أنفسَنا، بعدَ الأوهام، أطيافاً. والأوديةُ السّبعةُ قد تَسلسلتْ خلْفنا، حتّى إذا نَزلنا بأقصى سابعها خَرَجَ لنا جبلٌ ضخمٌ هرِمٌ. يبدو من بعيدٍ حمساً دسِماً، ومن قريبٍ أغبرَ أجوفَ، جافّاً قد صامَ الدهر. وهَممْنا أنْ نهدِمَه بالمعاولِ فارتَدَّ علينا المِجنُّ وما ضربْنا إلا أنفسنا.

ثُمّ ارتجّ علينا، وأخذتْنا الحيرةُ في أمْرِ أطيافنا، لا نميّزُ لها وجهاً من قفا. ولا ندْري أتَسلْسلتْ الأوديةُ السّبعةُ خلْفها أم أمامها، أم الأودية هي ذاتها الجبل. وكأنّه انتسَب لنا فعرفناه، وإنّا به لحديثي عهْد.

وسأَلْنا الجُنّةَ بنَ أبي المتيَّم عن الجبلِ فرمى زَبَد البحرِ بنظرةٍ، وحِصِيَّ الرمالِ بأخرى، وتأمّلَ السماءَ مَلِيّاً ثُم قالَ كلماً إبْراً تفرّقتْ أحرفُه بيصاً.

ونظرْنا الأصفادَ والأغلالَ والتَلَّيْن اللذين نُرمى بينهما. الأوديةُ غارقةٌ في الخطيئةِ، طائعةٌ للوجعِ بينَ الزَّبَد والحصيّ، يمتطيها النفي وهي تئنُّ احتفاءً به. وسألْنا الـجُـنـّةَ لـمَ طلّقَ نفسَه واظّهَّر منْها ولبِس زَبَدَ البحرِ، فما نظـنُّه أبِهاً لنا، إنّما أهاجَ له ذِكرُ البحرِ شوقاً لـم يفارقْه منذ عهْد. وذكَرَ، كَمنْ سيُحادثُ نفسَه، أنّ الروميات يلْتحفن اللؤلؤَ والمرْجانَ خلْف البحر.

وساءلَنا المُساءَلُ إنْ كان الوطرُ كل الوطر آهاتِ الجراحِ والفزعِ هذه فلمْ نزدْ إلا آهاتٍ أخر صامتاتٍ وأُخر عالياتٍ كالخسْف.

واليأس قدْ رمى التواضعَ فراسخَ، وجمعَ أطرافَ المكان منْ حولنا. هلْ مِن موجٍ يَقذفُ بنا لِنَنْفضَّ، أو منْ رياحٍ تحملُنا لِنرتدَّ؟ حتى الارتكاس

عَسُرَ. هل مِن ستْرٍ غير القهرِ أو مُناجٍ غير البكاء؟ ما أبهى الفرار لولا الأصفاد.

أوديةٌ سبعةٌ، وأوهامٌ سبعةٌ، وأنيابٌ سبعةٌ. والفِرارُ، كالماءِ، أفتى السُّلطانُ أنّه حرامٌ ثلاثاً.

قيل:

((مَن همَّ بالأوديةِ فقدْ اكتملَ له الكربُ والخَطْب)).

قلنا:

((ومَن تأخَّر؟))

قيل:

((ومنْ تأخَّر)).

هذه الأرضُ بخيلةٌ، عاقرةٌ، بائرةٌ وبغيٌّ.

وأَقْسَمَ الليلُ أنْ ننتحي في مُنتهى الهزيعِ بِمخدعٍ حتى يحينَ اليقين. والعزائم ثُبِّطتْ في الوادي السابع قَبْل أن يحين الحين.

ولـمّا ظَهَر اللّظى كما هو، وانجلى الضّرامُ يَجْمع الأوديةَ ويُمَزِّقها رماداً تذروه العواصفُ والأعاصيرُ، صاحَ الجُنّةُ بن أبي المُتيَّم:

((يا مَهْدي الجبل!))

وصِحنا:

((هلْ منْ سبيلٍ بينَ الحصيِّ والزَّبَد؟ هلْ بعد هذا الوجعِ مِن طمَع؟ وهلْ في هذا الهزيعِ مِن شفيع؟))

في النِّســاء

في النِّهاء الأدنى

ا

هذا ما كتبْته جوى مِمّا لم يَبقَ منه بعد الضّياع إلّا سِفر ممحوّ

...

ب

هذا ما كَتبه ابنُ الحاضرة قبل أن يلتحفه السُّلطان

أَكتبُ عن رحيقِ المتاهةِ ساعةَ البدء. قالتْ جوى إنّنا لا ننظُر إلّا بعيونِ السُّلطان. قال الجهابذةُ من أمّته إنّ العيونَ عيونُه. عجِبَ العاجبون، وارتحلَ الراحلون. ألا لا فكاك. كنْ يا جنون كي أكون، فحسْب الرؤوس والنّهود والقلوب أنْ تُقطّع. ما من امرئ صَعِدَ جبلَ السُّلطان إلا وهَمَّ أن يبقى فوقه. أخبرَنا الخافضةُ ابن أبيه عن أبيه أنَّ الرملَ لذّةٌ لِلشّاربين.

ج

هذا ما كَتبه الجُنّةُ بن أبي المتّيم قبل أن يفنى

مضيتُ في سبيلِ الرّفضِ هزيعاً. أحلُّ في العشق أزلاً. هلْ ينتهي العشقُ وهلْ يَعرفُ التناثر؟ إنّه يَظلُّ ازدياداً مشتعلاً يُشْرِق وقْتَ غروبه. يَبدأ في المُنتهَى، ويولَدُ في الموت. هو العِشق ساعةُ اتّصال وصال أبديّةٍ في زمن الانفصال الانفصام هذا. هو العشقُ يظلُّ يمْتدُّ في أنسجتي لِأولدَ منْ فنائي، وأطوِّحَ في غيابي، وأصعدَ في عدمٍ يمتلئ وَجْداً وشوقاً. ساعةُ الحبّ تلك تملؤني إشراقاً. ولكنّها تتْركني غريقاً، وحيداً، أبحثُ عنْ وجودي خلْفَ ومضاتٍ سقطتْ وانطفأتْ. سمِعتُ عن النهرِ فَغُضتُ مع الغائضين. وبقيتُ أحترقُ في ضفّة بحْرٍ قَديمٍ تَحفُّه مُدُنٌ عجيبةٌ وأنوارٌ لم تكنْ. وكبُرْتُ كَقطعةٍ من هزيعٍ صبأتْ وسكَنت الإصباح. لقَدْ تمزّقتُ قِطعاً من العشقِ النّبيل تُراودُ ذاتها عن نفسها. ولو كنتُ دخلتُ هذه الأودية لَكنتُ. هلْ تسمعني الزّبانيةُ، وهلْ تُبْصرني الدّانيةُ؟ احترقي يا نفسُ وافْني يا ساعة!

د

هذا ما كَتَبه ابنُ الفارقة قَبل البَعد

أما إنّي أقولها عاضّة: لقد شرّقتُ أمامَ العجوزِ إلى أن شبتُ. ليس للنّفي إلّا أن يموت. والفجرُ أَعرَسَ مع الكمد. ذلك زهرُ الأفولِ الحافل. عَلِمتْ السّافلة أنّ التابوت موصدٌ فاكتفتْ. وسمعتْ السّابلة بالأمس فمرَّتْ.

حين تُنشد المدائنُ الواديَ فاعلم أنَّ هالكاً هلك. غُدُرٌ أتنم يا هؤلاء! عقيمة أنتِ يا أُمّ السّلطان!

قرأتُ في كتاب الفناء ساعةَ المتاهةِ من مَقام الهزيع أنّ للغُفران في مغاراتِ الحاضرة نشيجاً كأنّه ألسِنة الويل مُكفهرّةً. وزُلزلتْ الأوديةُ يومَ الشحِّ السّابعِ قبْل أن تقعَ الواقعة. طوى المُزايدُ موجَ البحر حتى ارتدَّ الزَّبَد. مرّت أعوامٌ والملأ يأتمرون، والنَّجمُ السَّحيقُ يُبْصر واديه. أفِل الآفلون، وكنتُ عتيقاً يومَ خُسِفتْ الطّائفة. والنُّواحِ الأليمِ لن أبرحَ الأرض.

ذاتُ الهرَجِ سمعتْ بالفاصلة وحكتْ عن ليلة عارية.

أزِفتْ الآزفة، وأودية العطش غافلة.

هـ

هذا ما به حدّثوا عن الذي له علمٌ بالسُّلطان

بعْدَ أعوامٍ من الهمِّ والهلع، وسنين طويلة عجاف، ونقصٍ من الأموال والأنفس، ذكرَ قومٌ أنّهم رأوا الذي له علمٌ بالسّلطان وحده هائماً في مُدُن الروم. وقد ساءَ حالُه، وشاخَ، وابيضَّ رأسُه.

وكان منْ أمْره أنّه حسِبَ الشّمسَ تَطلع، فانتظر عهوداً يُقلِّبُ وجهه في الشّرقِ بلا انقطاع، يرجو السّماءَ أن تجودَ بها ذات يوم.

وظلّتْ عيناه شاخصتين حتى نفد زادُه، ورأى أبوابَ التّوبةِ تُغلَق واحداً، واحداً. فَغضَّ البصرَ عن الشرق، وصار يؤمُّ كلَّ صُبحٍ إحدى الحانات يُؤذِّن في الروم صمتاً، ويُنادمهم علَّ الشّمسَ تَطلع من مغربها.

وأبصروه يَضربُ وجهَه بيديه ويقول: ((مِن هذه المدن استَقدمَ السُّلطانُ لسانه وعصاه. ما فَنيَ الجُنَّةُ بنُ أبي المتيَّم إلا بأثداء النّاهدات من نساء الروم)).

وطُلبَ أن يَلعن ابن الحاضرة فغضبَ ورفض. وحُدِّثَ عن ابن الفارقة فما نطق. وسُئلَ عن جوى فصمتَ طويلاً، وكفكفَ دمعاً، ومضى.

في النِّهاء الأقصى

أرسلَتْ مرسلةٌ إلى ابن الفارقة، قالت:

((يا ابنَ الفارقةِ كنْ ضخّاً ولظى، وإلّا كنْ نسياً منسياً.

يا ابن الفارقة إنَّ السّاعاتِ حين تتناثر تُغضبكَ. ألا فَلتتناثر إنْ أنشأتْ بغيابها حضوراً.

يا ابن الفارقةِ سِرْ، وليكن سفَركَ رقصاً، هزْءاً من الحزن والمأساة.

قدْ تَرى وقد لا ترى، ولكنّكَ ستفْقه.

ذلكَ ما أخبرتْكَ به يوماً جوى.

هو العذابُ حين تسْخرُ منه ينقلبُ على نفسه. ولكنْ كي تسخر مِنه سامرْه. واصطفه خِلًّا. إنّكَ بذاكَ تُعذِّبه وتُغرِّبه.

الصّحراءُ ليستْ يا ابن الفارقةِ عانساً بغيّاً، وإنْ التحفتْ الغُموضَ وطوتْ الأسرار.

يا ابن الفارقة لِتَنْسَ الأوديةَ العاهرة، ولِتنسَ الظلَّ والماء، ولِيتلظَّ فمُكَ بحُرقة العطَش.

تلك الصّخرةُ المرميّةُ التي قد أبصرْتَ تكاد تَشربُ ذاتَها عطشاً. إنّها وحدها أنيسُكَ في وحشتكَ.

حِينَ يَحترقُ الحلُم في قَلبكَ، ويهدُّكَ الجدبُ والقحط، لا ظلَّ ولا ماء يشفعُ فيكَ، فَلتلتهبْ، ولتضطرمْ، ولتَتَلظَّ في العطش المحْض. قد ينفجِر إذْ ذاك الماءُ غَدَقاً، وحدائقَ، وظلًّا، وشيئاً فرداً.

ما أبغي يا ابن الفارقة إلّا أن تكون.

إنّ قدميكَ اثنتان، وما كسبْتَ بعد السِّنين إلا قلباً واحداً. فما أدري لأيّ القدمين تكون الغلبة؟

لكَ أنتَ أيضاً أنْ تتساءل. ولكنَّ المِجنّ يرتَدُّ عليكَ حين تَتركُ إحداهما.

قدْ يكون السَّفَرُ وجوداً غاسقاً فيه فناؤكَ.

كَبُر الأصيلُ في العِهر، وانتهى الأفقُ خلفَ التَّساؤل الغارق. ذلك أن التنصُّل من حينكَ أمرٌ فيه هرَجٌ ومرَجٌ تحبلُ بهما الأيامُ منذ اقتطعتْ الأفاعي والعقاربُ الحرثَ والنَّسلَ. ولكَ في الأمر مساءلةٌ حقَّة قد تُطارحكَ الغرامَ على كلِّ عتبة. فاصبرْ في رفقتها ولو فَتَنتْ.

يا ابن الفارقةِ اخترِ الحين الفارَّ النادر، والْتَحِفْ القَصيَّ، فالقصيُّ يَعرف من الأيّام كلامَها الصّامت. واقتربْ إلى الفرق حيناً. وادْنُ منه أحايين. وسافرْ إلى حلمٍ قد فرَّ، أعواماً كثيرة.

واطلبْ الحلمَ أعواماً أخرى حتى تَقتني سُبله البعيدةَ والمشارق. وكَلِّمْ ذاته عُمراً كاملاً. واحترقْ فيه ساعةً. وكنْ من الفرق أقرب.

يا ابن الفارقة اسكنْ الأعوامَ الفارّة من حاضرها واصحبْ مخالبَ الخواتمِ القاضية.

كُنْ حيث تكون، ثمّ استَبِقْ نفسك واعبُرْ مقامَ الطرْفِ حيث ينتظرُ الأفقُ نفسَه. واطْوِ الأيامَ والأعوامَ والأوهامَ وهالةَ الأمس الذي لم يكن. واحْتَفِ بالظّمأ وبالأفقِ المُترع بنفسه وبالأفق النّاسكِ وبالحنينِ الأولِ. ففي وجعِ الأرضِ تكبر ملامحُك العاتية، وتربو رعودُ الوعدِ المرزوء. جوى وَعْدٌ وهي وعدُ الوعدِ، وكم يكون عذابُ الذين اكتووا بالحقيقة في منتهى السّدرة بأطراف الأفقِ الراحلِ خلف نفسه.

يا ابن الفارقة اذكرْ جوى. ورتِّلْ الرحيل. فالرحيلُ ظهورٌ للخرائبِ النائمةِ وللغاباتِ المُنشقَّةِ وللتَّجلِّياتِ الخائفة. الرحيلُ اندغامٌ مَرّةً، وانفصالٌ حيناً، وهو إلى ذلك غيابٌ وهيام. تنبعُ فيه الغرائب، والأشياء البعيدة، ويخرج فجأةً مُتَفجِّراً عجائبَ سبعاً وموتاً أصيلاً وعدماً نائحاً.

يا ابنَ الفارقةِ كان أحدُهم يَكتبُ على الجدرانِ المنفيّةِ أشياء لا أحد يقف عندها. وكان من بعد يَكتبُ ذاته مع تلك الأشياء جنباً إلى جنبٍ كأنَّه يُناظر السّاعاتِ المعتوهة. كُنْهُ ثمَّ عنه انفصِلْ وكُنْ نفسَك الصّائرة. وسائِلْ وطارِح النُّجوم والغيوم. واشرب الحزن في المثول. وأنشِدْه السِّفر المجنون. وعِظْه بما تملكُ خلْف الغيوم.

إنّ الألمَ يُسكِرُ نجوماً لا تراها إلّا أنتَ. إنْ هو إلّا الذي أَسكر أمّةً قريبةً مطمورةً في التلاؤمِ العصيّ.

يا ابن الفارقة اشحذْ صفاتِك قبل أن تَكُنْها. وتولَّ أمرَكَ. وسائلْ عن أيّامكَ المحجوبة. ورُمْ وصالكَ في المتاهةِ المنسيّةِ، وفي الغرائب المجهولة.

يا ابن الفارقةِ اعبرْ أرضاً غريبةً مُنْكرَةً خلْف الأفق. وادْنُ من المحال. واهربْ عنه. واطلبْ أنْ تكسُوه حُللاً لم تكن.

يا ابن الفارقةِ انظرْ صرحاً منْكسراً مرميّاً في أُفُقٍ شرقيّ، وغُضّ عنه البصرَ يرتدُّ إليكَ البصرُ. إنّكَ كي تتعلَّم الأسماءَ يلْزم أنْ تنساها. لتطْرق كلَّ الأبواب. ولتسامر الجنانَ المحمومةَ الغريقةَ في الهزيعِ المُتكاثر. وتهشَّمْ على عتَبتها. وسائلْ الموج عن مُطارحته. والبسْه.

سافرْ. واكتبْ في كلِّ فجٍّ أسفاراً لمْ تُخْلق.

يا ابنَ الفارقةِ الحلمُ المنفيُّ من الأودية يُلامسُ الجُزرَ البعيدةَ المنسيّةَ، وما ينبغي إلّا أنْ يُنشِدَ اسمكَ، وأن تلمسا المخْفيَّ معاً.

يا ابنَ الفارقةِ هي النُّقوشُ العاشقةُ للنَّجمِ العتيقِ تُغَنّي منذ الأزل، رغم كلِّ ما عرفتْه الأرضُ من سُلطانٍ قطَّعَ الرؤوسَ والنهودَ والقلوب. إنَّ النُقوش العاشقةَ تُغنّي، تَبتسم بُكاءً، وتكْتَنِه الحزن. ثُمَّ به تَخْرجُ، تمشي، تُسافرُ، تُطوِّحُ، تَدخلُ، تَنفذُ بين الشّيء وذاته، تلامسُ الأبدَ وتفتَحُ دفّتيه، تُغازلُ الأقصى وتغزوه.

يا ابن الفارقة إنّ العجبَ الثاني له قصّة، وهي مع ذلكَ تبدأ بعد أنْ تنتهي.

إنّ أمركَ قدْ يكشِف عن غيره يوماً.

إنّكَ امْرؤٌ عُجابٌ، ولكنّكَ لا تعْرفُ مِن السَّفَر السِّفْر إلّا فُتاتاً.

يا ابنَ الفارقةِ جماعةُ الحصادِ المنسيِّ في الذاكرةِ البعيدةِ تُسامِرُ الأعوام الصّريعة. وتَسألُ عمّا أنجبتْه هذه من نأيٍ يَنْبُتُ هزيعاً طويلاً مرْميّاً في التِّيه المُرقَّع.

قدْ يطولُ أمرُكَ وقد يقْصُر، ولكن ما منه كان كان.

يا ابنَ الفارقةِ مُرْ في التِّيه. واسترحمْ ذاته. واطلبْها النَّفقة أيّاماً. وعنْها سافر. وأبصرْ القارعاتِ الغريقةَ. وساكنْها. وأنشدْها أُنشودةَ الأيّامِ السّبع. وانطلقْ وأَطلِقْ. وادخلْ في كلِّ بعيدٍ. واضربْ فيه ضرباً. واستقْصه. واقتربْ منه...

إذا انتهيتَ يا ابن الفارقةِ فَكُن! وانسَني، وارْمِ هذا الكتاب. وإنّي لناظرة.

يا ابن الفارقة إيّاكَ، إيّاكَ سَبْعاً والسُّلطان!))

وتفرّقتْ السُّبل.

قراءة تحليلية بقلم:

أ. د. محمد عبد الحي(*)

(*) أ.د. محمد عبد الحي هو أستاذ الأدب الحديث والمعاصر وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي.

تعتمدُ السرديّاتُ المعاصرة في أغلبها، على نسقِ تيّار الوعيِّ[1] القائم على تداعي الأفكارِ والعبارات، دونَ الخضوع للروابط المنطقيّة أو الخطبية المعياريّة، وضمن هذا النسق – في رأينا – تقع روايةُ *أودية العطش*، وما

(1) تيار الوعي بالفرنسية (Le courant de conscience أو flux de conscience) وبالإنجليزية (Stream of consciousness)، والمقصود به أفكار الإنسان ومشاعره وذكرياته، وهو وفق علم النفس الاستبطاني، عملية تطوّر وتشكّل لا تتوقف، أي أن الإنسان لا يملك شخصية ثابتة ولا طبيعة أو هويّة قائمة أبدا لا تتغير، وإنما يملك، بدلاً من ذلك، شعوراً يفيضُ بضروب التغيير والتقلب والتدفّق والتفاعل عبر دفق من الذكريات والانطباعات الحسية والصور والتوترات تشبه في انسيابها وتبدلها حالة المياه في مسار النهر، أي في التيار، ومن هنا جاءت تسمية الحياة الداخلية للأفكار والمشاعر والذكريات لدى الفرد، تيار الوعي. وانطلاقاً من هذا الفهم للوعي عند الفرد رأى كتّاب معاصرون كُثر أن وصف الشخصية في العمل السردي من الداخل بالتقاط مجرى وعيها الداخلي، الزاخر بالصور والأخيلة والأفكار والذكريات، أوفى من وصف سلوكها الخارجي، ولما كان موضوع العمل الأدبي وفي مقدمته السرديات والقصيدة، هو تصوير الشخصية البشرية، وقد دأب لذلك على استخدام المنولوج الدرامي الذي يوجه فيه المتحدث خطابه إلى الجمهور، أو إلى شخص ثالث، فقد رأى الكتّاب المعاصرون المنشغلون بالتغيير الاجتماعي وفق الرؤية المستقبلية للحداثة، أن هذا التغيير ينطلق أولا من تغيير زاوية النظر عند الفرد للمجتمع والحياة، ومنزلة الفرد فيهما، وأن على الكاتب استحداث تقنية أدبية جديدة تستطيع وصف وجهة النظر المعرفية لدى الفرد، عبر تقديم معادل كتابي لعملية التفكير عند الشخصية أطلق النقاد عليها تيار الوعي، اقتباساً من زملائهم المفكرين في موضوع الاستبطان، وتقوم هذه التقنية على إعمال مشرط الكتابة الجديدة، في مستوى المونولوج الداخلي للشخصية، وعلى البحث عن لغة جديدة تتناسب مع هذه التقنية، بدل وصف سلوكها الاجتماعي، أو مونولوجها المُحوّر، باللغة المألوفة، على نحو ما كانت عليه الرواية الاجتماعية والقصيدة الغنائية.

دامت تُصنِّف نفسها في خانة الأدب النثري[2]، فلا يكفي أن نطالبَ القارئ بأن يقرأها قراءتهُ الخاصّة، ويكتفي بتأويله الخاص، كما يفعلُ مع القصيدة، فالأدب النثري متعدٍّ: يقول شيئاً، وليس لازماً: يوحي فقط، كالقصيدة في نموذجها المثالي، فماذا تقولُ هذه الرواية؟ وكيف تقوله؟

*

وللإجابة على هذين السؤالين نقرأ النص من عتباته الأولى إلى نهايته.

أولى عتبات هذا النص هي: العنوان، فالـ " أودية " جمع وادٍ، والوادي هو المنفرج بين جبالٍ أو تلالٍ أو آكام، أياً كان شكله: جدباً كان: وادي مكة[3]، أم خصباً: وادي النيل[4]، ميموناً كان: وادي طوى المقدس[5]،

---

(2) وانطلاقاً من هذه الرؤية نشأ قص جديد قائم على تقنية في السرد غير مألوفة تعرض شتاتاً من الذكريات والانطباعات الحسية والصور والتوترات كما تتم في حديث النفس لذاتها، دون اعتبار لجمهور أو طرف آخر، فالأفكار والمشاعر أي كافة القيم الشعورية، تتداعى وفق آلية الشيء بالشيء يذكر، وانعكس ذلك على الأسلوب التعبيري فجاءت العبارات أحياناً غير مترابطة، وغير متسلسلة، ومتناقضة، لأنها كذلك في واقعها، وهو ما يجعل القارئ يتيه فيها، ويحس بتشويش، وكأنه يطارد أحلام نائم أو شطحات صوفي، لأنه تعود على قراءة ما ألف وفق منطق العقل السببي، رغم أنه إذا عُرض الأمر على مختبر نفسه يجد أن تيار وعيه الشخصي ينشأ على هذا النحو ذاته قبل أن يتدخل العقل، فيعيد ترتيبه بما يتفق مع قوانينه.

(3) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ (سورة إبراهيم: 37).

(4) حوض النهر الممتد بروافده من البحيرات العظمى في وسط إفريقيا إلى البحر الأبيض المتوسط عبر مسافة تصل 6650 كلم.

(5) المذكور في القرآن الكريم: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝﴾ (سورة طه).

أم مشؤوماً: وادي عبقر[6]، والأودية قد تحيل إلى عدم الثبات على شيء والتنقُّل المستمر: أودية الشعراء التي فيها يَهيمون[7]، وقد تحيل إلى الاختلاف والتمايز[8]، وقد تحيل إلى ضيق الأمر وشدَّته: "حَلّ بواديه"[9]، وقد تحيل إلى الهلاك: "سال به الوادي"[10]، وقد تحيل إلى الوحشة والخوف: وادي امرئ القيس المظلم[11].

والعطش شعورٌ يُنبّه الكائن الحي إلى أنه بحاجة إلى الماء إكسير الحياة، الذي يُهدد فقدانُه بفقدانَ الحياة ذاتها، ومن هنا فكلُّ إحساسٍ بفقدانٍ ما يهدد الحياة فقدانُه هو عطش.

ولعل إضافة الأودية للعطش في العنوان الرئيس لهذه القصة (أودية العطش)، تربطها بالمعاني الثلاثة الأخيرة للوادي معاً: التنقل وعدم الثبات من جهة، والفرقة والشتات من جهةٍ ثانية، والخوف والإيحاش من جهةٍ ثالثة.

---

(6) وادي عبقر هو واد سحيق يقع في نجد، وإذا قيل فلان (عبقري) فهو منسوب إليه، وتقول الروايات إن هذا الوادي يسكنه شعراء الجن، وإن من أمسى ليلة فيه، جاءه شاعر أو شاعرة من الجن يلقنه الشعر، وإن كل شاعر من شعراء الجاهلية كان له قرين من هذا الوادي يلقنه الشعر. (راجع مقدمة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي).

(7) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ (سورة الشعراء).

(8) أنت في وادٍ ونحن في وادٍ [مثل]: يُضْرَب في اختلاف المقاصد.

(9) مثل يضرب لمن نزل به المكروه وضاق به الأمرُ.

(10) مثل يضرب لمن هلك.

(11) [وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل]
(البيت رقم:49 من معلقة امرئ القيس).

أمـا العنـوان الفرعـي (رواية) فيحيل إلى مبنى هذا العمل: سرد لأحداثٍ ممكنة، أو محاكـاة ساخـرة[12] لهـا، تقـوم بها شخصيات فـي بيئـة اجتماعيـة، يتحرّكـون في زمانٍ تُشير إليه الأيام السبعة، ومكـانٍ تُشير إليـه الأوديـة السبعـة، والرقم سبعة يظل حاضراً في ثنايا النصِّ باستمرار، ودلالاته الدينية والاجتماعية والميثولوجية لا ضفاف لها[13].

والعتبة الثانية هي اسم الكاتب[14] (بدي ابنو) الذي يربط النص ببيئةٍ اجتماعيةٍ موريتانيةٍ خاصة، وببيئةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ عامة، إذ يحيل إلى

---

(12) Une parodie

(13) من الأمثلة عليها: خلق الله العالم في سبعة أيام، والسموات سبع، والأرضون سبع، وأبواب النار سبعة، وعجائب الدنيا سبع، ورؤيا ملك مصر سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان، والأمر بالصلاة عند سن السابعة، وأشواط الطواف حول الكعبة سبعة، والسعي بين الصفا والمروة سبع مرات، وعدد جمرات الرمي سبع، والسبع المثاني آيات الفاتحة، وتكبيرة العيدين سبع تكبيرات في الركعة الأولى، والدعاة عند الإسماعيلية سبعة بعدد أحرف (بسم الله) دليل على دعاة أصحاب الأقاليم السبعة، وعقيقة المولود لسابع أيامه وعدد أيام الأسبوع سبعة، والأقاليم الجغرافية سبعة عند بطليموس، وعدد القارات سبع، وعدد البحار سبعة، والمعادن الرئيسة في الأرض سبعة، وعدد قارات العالم سبع، والسلم الموسيقي سبع نغمات، والحكماء في الفلسفة اليونانية سبعة، وأنواع أساسية من النجوم سبعة، ومدارات الإلكترون حول النواة سبعة، وألوان الضوء المرئي سبعة، ومثلها لغير المرئي، وسبعة أطوال لموجات إشعاعاته، ودورة القمر حول الأرض أربع سبعات (28 يوما)، والقائمة طويلة.

(14) كُتبت هذه الدراسة كما هو واضح انطلاقاً من طبعة أودية العطش التي أصدرتها دار العرفان، 2012. انظر لاحقاً (الناشر).

الأولى بتحويراته عن أصليه[15]، ويحيل إلى الثانية بمرجعيتيه[16].

هاتان المرجعيتان تفتحان الباب على إمكاناتٍ دلاليةٍ مُتعدِّدة، كأن تكون (أودية العطش) صورة لبيئةٍ موريتانيةٍ خاصة، المحكوم عليه بالعطش فيها هو الموريتاني، وأن تكون صورةً لبيئةٍ عربيةٍ عامة، المحكوم عليه بالعطش فيها هو العربي عموماً، وأن تشمل إلى جانب البيئتين بيئةً أوسع يشترك في العطاش معهما فيها من في معناهما، ممن لديه نمط بنية المجتمع وعلاقة الحاكم والمحكوم.

وثالثة العتبات هي النشر، إذ يحيل تاريخ نشر الطبعة الأولى[17]، والناشر[18]، ومكان النشر المزدوج[19] إلى زاوية النظر التي نشأ فيها

---

(15) الجزء الأول من الاسم (بدي) هو تحريف لمحمد، لم يُبْق من أصله إلا على حرف الدال، إذ من عادة الموريتانيين، أن يكنّوا الشخص بأول ما يطلق عليه الطفل عند ما يريد النطق باسمه، والطفل في البداية إنما ينطق بالحرف الشفوي (ب: بابا)، والحرف اللثوي (د: دادا)، أو ما شابههما، لذلك حول محمد إلى باء مفتوحة ودال مكسورة، (بَدِ)، فحول الخط اللاتيني الكسرة إلى (Y)، فعادت إلى العربية ياء. أما الجزء الثاني من الاسم (ابنو) وهو اختزال لاسم أحمد بن حنبل، فقد دأب القوم على تسمية أبنائهم على الشخصيات الإسلامية، ومن ضمنها الإمام أحمد بن حنبل الذي كثيرا ما اقتصروا من اسمه على (ابن حنبل)، ثم على (ابن) فقط، ومع طول الزمن أصبحت (أبنُ) بهمز القطع، وتدخلت الكتابة اللاتينية أيضا لتجعل الضمة على النون ممدودة (Ebnou)، فعادت إلى العربية واوا (ابنو).

(16) محمد ﷺ، واضع أسس هذه الحضارة، وأحمد بن حنبل إمام مذهب السنة والجماعة عقدياً، وصاحب رابع المذاهب الفقهية السنية الأربعة.

(17) 2012

(18) (عرفان).

(19) فرنسا–المغرب.

النص: زاوية تطل من البيئة المُنتِجة للمعرفة الفكرية والعلمية المطبَّقة، شمال الأبيض المتوسط، في بداية القرن الواحد والعشرين، على بيئة جنوب الأبيض المتوسط الحاضنة للرؤية الضبابية المتجسدة في البنى الاجتماعية العتيقة والرؤية الحسيرة النظر، التي تحجب عنها رؤية رياح الحداثة وزوابع العولمة، وبركان المعلومة الجارف، في العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين، مما يجعل أبصارها – رغم تنافسها في اقتناء شواهد العصر والاستمتاع بها – لا ترى نموذجاً للمجتمع غير أنظمة القهر والسخرة، والغبن وخلق الأوثان، خاصةً بعد أن تلاشى مع الزمن حضور الرقيب الديني الذي كان السلاطين يدّعون أنه يعطيهم الحق في فرض مشيئتهم: "إنما أنا سُلطان الله في الأرض أسوسكم بتوفيقه[20]... وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته"، ولعل من الموافقات أن يكون اسم الناشر غنوصاً: (عرفان)[21]، يحيل إلى الرؤية العرفانية المتحكمة في العالم الذي يعرضه النص؛ فالعرفان رؤية حدسية ثقافية للكون، مختبئة في حفريات الذاكرة الجماعية، يُشكّل فيها التفكير السحري الذي هو أدنى درجات الفعالية العقلية، قطب الرحى، وتدعي لنفسها احتكار معرفة الحقيقة والتفوق المطلق على العقل القائم على

(20) أبو جعفر المنصور (عن محمد عابد الجابري/ تكوين العقل السياسي العربي، ط 4، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، 2000/ 365.

(21) (Gnose, gnôsis) ويعرفها عبد الوهاب المسيري بأنها "رؤية للكون تستجيب لشيء جوهري في الإنسان هو (...) الرغبة في الانسحاب إلى الرحم وفقدان الهوية وتصفية الثنائيات الأخلاقية والمعرفية".

المنطق السببي البرهاني[22]، وهي متأصلة في الفكر البشري عموماً منذ القديم، وما تزال تمتلك الهيمنة والتأثير في العقل السياسي والاجتماعي العربي عموماً والموريتاني خصوصاً.

❋

تقع الفقرة المعنونة (***ترجمة الكتاب***[23]) في منزلةٍ بين منزلتي عتبات النص والنص، فهي منها ومنه في الوقت نفسه، فترجمة الكتاب هي فاتحته، وسيرته الذاتية، أي شرح خط سيره، فهي تقدِّم مشهداً تجري أحداثه في " ***وادٍ غير ذي زرعٍ***[24] "، من خلال لحظة تجلٍّ وإشراقٍ، يَقتنصها الخيال المبدع في غفلةٍ من رقيب العقل السببي وكوابح قوانينه التي تحدِّد مسار الأفكار تحديداً سيمترياً، من تيار وعي الشخصية، من سيل أفكارها وخواطرها واجترار مخزون ذاكرتها الغميس، الذي لم يتحوَّل بعد إلى البنيتين السطحية والصوتية الصرفية[25].

---

(22) راجع مفهوم العرفان عند محمد عابد الجابري في ثلاثيته: (البيان، البرهان، العرفان) ضمن كتابه تكوين العقل العربي، المغرب 1982.

(23) بدي ابنو / أودية العطش.

(24) واد من أودية العطش سابق على الأودية السبعة، أو لعله أمها التي تحتويها أو تتوالد منها، فهو وادي القحط كما توحي به عبارة غير ذي زرع المقتبسة من الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (سورة إبراهيم).

(25) بالمعنى التحويلي التشومسكي لهما، أي: بنية ذهنية عميقة (tructure profonde/deep structure) تشمل العناصر الكاملة للمقولـــة اللغوية تتحول إلى بنية سطحية منطوقة =

يرى الرائي[26]، في هذه الرؤيا نفسه وهو يتلمَّس جوارحَ وجهه، مرتاباً في وجودها، لما عانى من ألمٍ ووجع، والشك أول خطوةٍ منهجيةٍ في سبيل المعرفة، وتتجسَّد أمامه صورةٌ لتمثالٍ هرميِّ الشكل عتيق أصم ذي إطارٍ خائرٍ رغم مظهره المستكبر، هو صورةٌ لنظام المجتمع بِقمَّة هرمه: الحاكم وقاعدته: البنى الجزئية من قبيلة وفئة، ومجموعة خاصة. وهو نظامٌ كثيراً ما يبدو من مظهره الخارجي أنه نسقٌ محكمٌ وقوةٌ هائلةٌ مخيفة، ثم عندما يطَّلع عليه المرء من داخله يجد خواءً هلامياً مُتهالكاً، لكن هلاميته وتهالكه جعلاه عصيّاً لا تقوى قوة على تقويضه إلا عبر أجيال لأن قوته مرتبطة بتجذره في اللاوعي الفردي والجمعي؛ فهو هرمٌ مخيفٌ أجوفُ أشهب: لا أثر فيه للحياة، مع أن الكل يسعى ليمري ينابيعه، ويمتصَّ دماءه، وقليلٌ هم الذين يدركون في النهاية أنه سراب، ويرون حقيقته: ظلاً ذا " ***ثلاث شعب*** "[27]، قيل إنها أطراف أحداث ملحمة هم: " ***سُلطان و بطانة***"[28] يرفضان معهما ثالثاً، و" ***نزر بلا ستر***"[29]: ثلة من الناس يرفضها السلطان وبطانته ويطاردونها للقضاء

= (Structure de surface/ surface structure) لذا فالنموذج يتكون من مكونين أساسين هما: المكون التركيبي الذي تتنظم داخله عناصر البنية العميقة والمكون التحويلي الذي يحدد البدائل الممكنة لبنيتها السطحية.

(26) الراوي الكاتب الضمني.

(27) المصدر نفسه أودية العطش. وفيه تناص مع الآية الكريمة في وصف الجحيم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾ (سورة المرسلات).

(28) المصدر نفسه.

(29) المصدر نفسه.

عليها، وهي تبادلهم رفضاً برفضٍ ومطاردةً بمراوغة، والسُّلطان وبطانته معاً يُمثِّلان إحدى الشُعَب، والنزر يمثل الشعبة الثانية، أما الشعبة الثالثة فهي جمعٌ هو مدار الصراع بين الشعبتيـــن الأولى والثانية، وهو ضفاف " ***أصبحت كالصريم*** "[30]، شتاتٌ واهنٌ خائر، شتاته وخوره هما مصدر توحد وقوة السُّلطان الجائر. وككلٍّ رؤيا تختتم بتلاشٍ مفاجئ. ولكن جو الرؤيا سيبقى مُهيمناً على نص الكتاب، في جانبيه: الرسالة بمقدمتها وفصل خطابها وتفاصيلها و" ***نهائها الأقصى*** "، وقصة السُّلطان المتضمنة كأنها استطراد توضيحي طغى على المتن حتى غلب عليه. وقد بقي طابع الكتابة المتمردة على حدود التجنيس الأدبي حاضراً، رغم العنوان الفرعي الذي يربط العمل بجنس الرواية، استناداً إلى هيمنة قصة السُّلطان على الرسالة كما، وتفسيرها لها مضموناً.

*

انطلقتْ الأحداثُ "في البدء"، من ملاحظةٍ "قبلية" لواقعٍ عبّرتْ عنه كالتالي: " ***قلّتْ السبلُ، طال السُّرى، خفيتْ النجوم، بَعُدتْ السماء، ادلهمَّ الأفقُ، غضبَ الموج، أَنَتْ الأرض، أدمتْ الجراح، ولم يُخرج الليل إلا أهوالًا وغمرات صحبتْ الهزيع عبر السنين*** "[31].

---

(30) المصدر نفسه. وفيه اقتباس من الآية الكريمة التي تصف ما عاقب الله به أصحاب البستان الـــذين عزموا على حرمان الناس منه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ (سورة القلم).

(31) المصدر نفسه.

طال السُّرى إذاً، في هذا الوادي القحط والنفق المظلم، الذي لم يَظهر أي ضوءٍ في نهايته، ومن طال به السُّرى، كما يقول المثل الشعبي، يلتق وجهاً بلا أنف[32]، يتخيَّل شبحاً مرعباً، فما هو هذا الشبح المخيف؟

رأى الراوي الجمعَ بصفة المفرد: "النزر"[33] أن يرفضَ هذا الواقع وأن يبحث عن مخرجٍ منه، ويتوقَ إلى حياةٍ أخرى يتلمَّس طريقها بشتى السبل، علَّه يخرج من جبروت سُلطان عادة التخاذل وزبانيته المتربِّصين بكل مشرئب لسماء الحرية والتطور، ذلك السُّلطان الذي يجمعُ الجموعَ يسدُّ بها كل طريق، وينشر بها القهر والعدمية، ويُشتِّت بها العقول، وينشرُ الظلام والإحباط والماضوية والهلاك. أطلق النزرُ إذاً شعارَ الرفض وسيلةً لبلوغ الهدف: الحياة " ***لا بدَّ من ماء***"[34]، والماء هو الحياة، فأطلق السُّلطان شعاره المقابل: " ***إن الرمل هو عينه الماء***"[35]، الرمل هو الرغام، هو الهوان هو الموت، ومن لم يشربه فجزاؤه " ***الصَّلب والرجم***" والإلقاء به في الجحيم، كمانعٍ من الهدف؛ فتَبارَتْ حشودُ الدهماء العمياء الباحثة عن حتفها بأظلافها كالعادة تَتنافس في تنفيذ أوامر جلّاديها، والمتسلِّقين على أكتافها، تقرُّباً منهم وتعبُّداً لهم، وتنكيلاً بِمَن لم يطعهم معصوب العينين مثلهم؛ كل فئةٍ تدَّعي أنها صاحبة الأثرة عند السُّلطان، وأنها وحدها دون غيرها، التي تعرف " ***اسمه الأكبر***" الذي

---

(32) [الِّ طوَّلْ السّريَّ يَجْبَرْ اوجهْ بْلا خْنافرْ] مثل شعبي(حساني).

(33) أي الرهط القليل الذي هو قلة القلة الرافضة لحياة الضر والعطش.

(34) أودية العطش.

(35) كل ما سيأتي لاحقاً بين معترضتين هي اقتباسات من أودية العطش لبدي ابنو.

يرضيه ويستجيب لمن يتقرب به إليه: ويُصنف نص الرواية هذه الفئات إلى ثلاث هي:

* فئةٌ تحمل أنوفها معفرةً في أيديها ذلاً وهواناً

* فئةٌ تزحف على أدبارها خوراً وعجزاً

* فئةٌ تلتحف ألسنتها بِغمغماتِ التزلُّف المهين

وينقل الراوي صورةً عن هذه الفئات عند احتدام تنافسها الأرعن، وقد اشتبكتْ فيما بينها في تدافعٍ للفوز بالقرب من السُّلطان الذي أخذ يتفرَّج على هذا التفاني في القرب منه، مُطلقاً قهقهاتِ رضاه الفظيعة وسخريته الساديّة " ***إنها قهقهة السُّلطان الحمراء، تلألٌ من الفزع الهرم تُبارك الجمع أمراً وفئات*** ".

وتقطع رحلة "النزر" في سبيل البحث عن الهدف: الحرية والجمال والنبوغ، سبعة أودية، لا تحمل من سماوات الإسراء والمعراج السبع الموصلة إلى المعرفة[36]، ولا من أيام التكوين السبعة [37] المتوَّجة

(36) راجع قصة الإسراء والمعراج في تفسير ابن كثير للآية الأولى من سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾

(37) ففي مقابل خلق النور جاء النزول بوادي الصمت، وادي القهر والظلم والظلمات، وفي مقابل خلق السماء، جاء النزول بوادي النجم، وادي قتل الأمل، وطمس أفق المستقبل، وفي مقابل خلق الأرض والبحر جاء النزول بوادي الرحيل والتيه إلى غير وجهة، وفي مقابل خلق الشمس والقمر، جاء النزول بوادي الصخرة: الطريق المسدود، وفي مقابل خلق حيوانات البحر والجو، جاء النزول بوادي النهر: نهر من أشلاء البشر الممزقة، وفي مقابل خلق حيوانات البر، جاء النزول بوادي الهزيع =

بالخلق، ولا حتى من رحلات السندباد السبع، التي كان يعود من بعضها ظافراً[38]، إلّا العدد سبعة، ولكنها تلتقي مع سني يوسف العجاف[39] في العقم وانعدام السبل، ومع أبواب جهنم السبعة في النكال بِمن فيها. هي أوديةٌ سحيقةٌ عسيرةُ العبور قاتمةُ الأغوار مليئةٌ بالأسرار والشرور، قطعت في أيام الأسبوع السبعة، لتتفرق السُّبل بالنزر، فيَتساقطون حسرى: منهم من سيختفي أثره (جوى)، وهي التي سبقتهم في هذا الطريق الوعر، فسمعوا عنها ثم التقوها، واسترجعتْ لهم مواقف من كفاحها، وبصرتهم ببعض عيوب مسيرتهم، فلئن كان " ***نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام*** "[40] ، فليس ذلك بالضرورة، رفضاً مصدره موضوعي، بل قد يكون لمجرد أنه لم يجعلهم من خاصته، فهو رفضٌ مصدره حضوره في أفكارهم ومشاعرهم، وهذا ما جعل جوى تسألهم قبل أن تختفي قبلهم، عن طبيعة رفضهم للسُّلطان، هل هو" ***رفض***

= المظلم الذي لا يؤذن بفجر، وفي مقابل اكتمال الخلق والراحة، جاء انكشاف الأوهام، فاتضح أن الهرم التمثال الأكبر والهرم الأخطر لما يتم الوصول إليه، وبالتالي ما زال السفر في المربع الأول.

(38) رحلات سندباد البحر في ألف ليلة وليلة إلى: 1-الجزيرة المتحركة والخيول البحرية، 2- وادي الألمـاس، ثم 3- التي لقي فيها الغول الأسود، 4 التي دفن فيهـا حيـا، و5- التي لقي فيها شيخ البحر، ثم 6- رحلته النهرية في كهف، ثم 7- التي زار فيها مقبرة الأفيال.

(39) الواردة في قصة النبي يوسف الآية 43 من سورة يوسف ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾

(40) " إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل " (عمر بن الوردي)

السُّلطان أو رفض أحد أسمائه؟ "، أي رفض صفةٍ من صفاته، هي إهماله لهم.

ومنهم من سينضم لحزب السُّلطان (ابن الحاضرة)، ومنهم من سينتحر (الجنة بن أبي المتيم)، ومنهم من سيتشرد ويفقد عقله (الذي له علم بالسُّلطان)، ومنهم من سيبقى صامداً يقاوم حتى تحين الفرصة (ابن الفارقة). فالسُّبل بدأت ضيقة ***" قلت السبل "*** ، ثم اتسعت عبر سبعة أودية، ثم تفرقت في ***" النهاءين " : " الأدنى "*** و***" الأقصى "*** ، لِحدٍّ لم تعد قابلةً للتلاقي مستقبلاً: ***" تفرَّقتْ السُّبل "*** .

*

في اليوم الأول والمرحلة الأولى من البحث عن "سبيل"، اكتشف "النزر" وادي الصمت[41]: وهو ***" خرابٌ يمتصُّ أنفاسه، تتناثر فيه شجيرات سيقانها من الخور، وأغصانها من الوجع، وثمارها من عنفوان الموت "***. ووسط هذا الوادي المشؤوم ينتصبُ طبلٌ ضخمٌ ***"كأنه رحى المحال أو قرون الجريمة "***، قاتم اللون مع أنه لا يستر ما فيه. وما فيه هو ***" قوم يظلهم النعاس، يجر بعضهم بعضاً، يغرزون أسنانهم في الريح ويضربون ظهورهم بالمعاول "***. ويُعرِّفنا (ابن الحاضرة) بهؤلاء قائـلاً: ***" هؤلاء الطّبّالون حين يكفون عن دقِّ الطبل يكون هذا شأنهم داخله حتى يعاودوا الدق"*** هم مُهرِّجو السُّلطان الطبّالون الذين ينحشرون

(41) الكل فيه صامت لأن الأفواه مكممة، فليس من حق أحد غير السلطان أن يتكلم، إلا بتمجيد السلطان.

داخل الطبل حين يكفّون عن دقه، حتى يؤمَروا بمعاودة دقِّه من جديد، وهم في هذا العمل السيزيفيّ إلى الأبد[42]، إلّا من يتكرم عليه السُّلطان بالترقية فيُصعده إلى رتبة سدنة الجبل، وما أدراك ما الجبل؟ إنه جبلٌ يقع في وادي الصمت خلف باب السُّلطان، "***جبلٌ أشمّ من الأعضاء البشرية المقطعة: رؤوس رجال، ونهود نساء، وقلوب أطفال***". وعلى قمّته يتربع السُّلطان على جباه زمرة الطبقة العليا من السدنة التي تحملها الطبقة الثانية، وهي حشدٌ من الغلمان والحشم يتصبَّبون عرقاً كأنه صفير النهاية، هم طبقة سدنة السُّلطان، "***يرتفع على جباهها... يخطب وهي تصفق صمتاً***". وإذا كان الزمن يُعبِّر عن حركة التطور فإن زمن هؤلاء يتلاشى ويضيع. الجمع يكاد يَغرق في عرقه، لكنه ليس عرق الفعل والإنتاج، بل هو عرقٌ يتبدد عدماً. وجوُّ الموت يُخيّم على كل شيءٍ في الوادي، الذي لا يلوح فيه سوى سدنة السُّلطان وغلمانه الذين هم أوجهه أو هم أقنعته. مع أن البعض كان يتصوّر أن للسُّلطان وجهاً خيِّراً غير هذا تخفيه بطانته، ولكنه أصيب بالخيبة من بعد، حين أدرك أنها كذبة، وأن السُّلطان لم يمتلك القلوب بل هو قطَّعها. أما الزمرة التي تحمله على جباهها فهي هذه البطانة التي تعبُده وتجمع الرؤوس والنهود والقلوب لتُعلي بها الجبل حتى يرتفع فيرتفعوا فوقه ليشربوا المُزن فلا تصل قطرةٌ منها إلى الأرض، وهذه مجموعةٌ من قيم أنظمة الاستبداد الملازمة له، الأخطاء تُنسب دائماً لغير قمة الهرم؛ فهو مُنزَّه عن أن يكون

(42) شأنهم شأن القاعدة العريضة من البسطاء الذين يخدمون ذوي المناصب العالية بالمجان، فلا يلقون منهم إلا الازدراء والإهانة.

على علم بها ما دام في قِمة الهرم، وحاشيته تعبده عبادةً مطلقةً، وتحتكره حتى عن نفسه، لأنها بواسطته تحتكر كل شيء.

في وادي الصمت أخذ "النزر" الرافض يتخفى خوفاً من الحراس ويقترب ليسمع خطب السُّلطان: للسُّلطان لسانٌ "***جاء به من خلف البحر ليلقي به خطبه***"، دليلاً على تبعيته للآخر: مصدر احتكاره لامتيازاته. لسانه يتدلى من عينيه، فيعمي بصره وبصيرته، ويغطي صدره فيبلِّد عواطفه وأحاسيسه، يُزبد بماضٍ من الألم وإذلال الشعب ومن الظلامية المفزعة. يُلقي خلف الجبل قشوراً من الحروف العقيمة لا تحمل إلا ريح الماضي وتمتمات العدمية المتنافرة "***تتساقط كرقابٍ تُقطّع***"، خطب تكرس الماضي وتسد الطريق إلى المستقبل، تشرع الغبن والظلم والاستئثار قولاً وفعلاً: "***اسجدوا لي واركعوا***"، تُقسِّم الأرزاق بين الناس قسمةً ضيزى: أهل السلطان: لهم السماء والأرض. بطانته: لها النهر والمزن. بقية الناس: لهم الرمل يشربونه، والقهر يشربهم. الرهط المارقون عن الطاعة: لهم الرَّجم والصَّلب والعطش الأبدي. وتزعم هذه الخطب أن حكمه الجائر عين الرشد والعدل.

قضى السُّلطان بإرسال الجيوش الجرارة خلف رهط الرفض ليمزِّقوهم ويجعلوهم عبرةً لمن "***قد اتَّبعوهم وأنصتوا لهرائهم وأبوا أن يشربوا من الرمل- والرمل لذةٌ للشاربين ... وطلبوا الماء ونادوا بالشفاء، ونحن عدلاً ورشداً، كنا حرَّمنا الماء، وقلنا إنه علقمٌ قاتلٌ لا يلد إلا مزيداً من العطش***". ختم السُّلطان خطبته مستشهداً بمقولة لقدوته "العبد الصالح"[43]:

---

(43) هو الحجاج بن يوسف (40 – 95 هـ = 660 – 714 م) القائد الأموي الذي جعل منه التاريخ المثال البارز للحاكم الطاغية، والقدوة "الصالحة" المثلى للطغاة.

" إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لَصاحبها[44] ألا إليكم بُعثتُ ولكم بلغت ". هو إذاً ليس مبتدعاً فأسلافه كثرٌ في التاريخ العربي الإسلامي الحافل بتقاليد القهر والاستبداد، وتسخير الشعوب لرغبات الطغاة وتجييشهم وتحشيدهم لإشباع نزواتهم، وما الحَجّاج إلا نموذج من آلاف النماذج، ألم يقل ابن خلدون "إنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة"[45]، وهو استنتاج استنتجه من دراسته لطبيعة أنظمة الملك التي تعاقبتْ على الحكم عبر تاريخها حتى عهده القرن 8هـ/ 14م من "العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر"[46].

وينتهي المشهد في وادي الصمت بانطلاق البحث في كل الأودية عن "النزر"، زمرة الرفض التي اندفعتْ تبحث لها عن ملجأ عصي على الوجود، *" فما شرقت إلا غيوم عاقرة "* .

*

في اليوم الثاني والمرحلة الثانية من البحث عن سبيل للخروج من المأزق اكتشف وادي النجم: (=الأمل المخذول)، وهو وادٍ يتربّع فيه

---

(44) من نص خطبة الحجاج الشهيرة في مسجد الكوفة عند قدومه والياً عليها من قبل عبد الملك بن مروان. (انظر ابن عبد ربه العقد الفريد 5/ 278–279 .(http://www.shamela.ws

(45) المقدمة دار الفكر للطباعة بيروت 2003 ص 186–187.

(46) عنوان تاريخ ابن خلدون الذي كتب المقدمة مدخلاً له هو: "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أخبار العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر".

نجمٌ كان قد سقط من قديم[47] وانطفأ منذ أزمان (أملاً انعقد ذات مرةٍ ثم خاب)، له أجنحة من الشوق تترامى في الوادي، قرب كل جناح علقت بـ "***حبال من القبول جماعة تصطلي في العذاب والعقاب***"، ومع ذلك لا تشتكي.... وهُم، كما قال عنهم شيخ الوادي "***من خيرة الوادي وفلذات كبده***"، هم أبناء هؤلاء الذين يخفون عن أعين السلطان جماعة الرفض، ويؤوونهم اليوم.

التقوا في هذا الوادي شيخاً استرجع لهم بعضاً من نضال أسلافهم المناضلين ضد الظلم: من جيله هو وجيل ابنه وجيل حفيده، وعن الجيلين الأخيرين سيلتقون من بعد في وادي الرحيل (جوى): زوجة الابن وأم الحفيد، أخبرهم الشيخ عن هؤلاء المعذَّبين المربوطين بأجنحة النجم، فهُم أبناء الوادي الذين حاولوا مرةً أن يستكشفوا ما فيه من شوقٍ فكان جزاؤهم العذاب الأبدي. إنهم أصحاب (جوى)[48].

أما أهل الوادي ففيهم التناقض المألوف عند الدهماء في كل زمانٍ ومكان: "***قوم عجبٍ وغرابة، يُدينون السلطان بعقولهم وقلوبهم، ويُهللون له بألسنتهم ويصفقون له بأيديهم، ويبتلعون الرمل نهاراً، ويشربون دموعهم ليلاً***"، ومع ذلك ففيهم بقية كرامة: "***وهم على غرابتهم هذه قبلوا أن يستروا وجودنا بينهم عن عيون السلطان، وأن يخفونا عن رسل الجيش***".

---

(47) يؤرِّخ البدو الموريتانيون بسنة تساقط النجوم، وهي سنة 1932 التي كثر فيها سقوط النيازك، وكانوا يرون أنها نجوم حقيقية تتساقط.

(48) الجوى: عطش أو عشق أو مرض بسبب أحدهما.

حذّرهم الشيخ من التراجع والرضوخ كما وقع لكثيرٍ من أسلافهم في النضال: "***كل الزمر التي مرّتْ فكرت، فما إن شق عليها الكرّ حتى فرّتْ، أولئك هم الذين سترنا، وآوينا، وحفظناهم بكل تكريمٍ، وسقيناهم بدموعنا***"...هم "***أدعياءُ للرفض وهم الآن بطانة السلطان وأولياؤه***". ولذلك فـ"النزر" في رأيه أمام احتمالين لا ثالث لهما: "***إما التيه، وإما أن تدخلوا في بطانته، وأن تتركونا نسياً منسياً***"، ولكن ردهم كان حاسماً، ولو أنهم قد لا يَفون بالوعد كلهم: "***سنسلك الرفض مهما تفرقت السبل***". ويقصُّ الشيخ عليهم قصته مع النجم، لقد حاول مرةً أن يضيئه فينزل الماء وتنبت الأرض ويؤدي البحر والنهر دورهما، وقد تسنّى له ذات مرةٍ أن أضاءه، لكنه ما إن أضاءه حتى أرغمه أعوان السلطان على إطفائه. ثم حاول ابنه أن يفعل فعله فقتلوه وحكموا على زوجته بالرحيل الأبدي وحيدةً. ثم جاء ابن ابنه من بعده فحاول من جديد أن يثأر لأبيه المقتول ولأمه المنفية، فجمع حوله بعض المناصرين فـ "***حلّت به النازلة وهو اليوم معلقٌ يتلظّى في غياهب العذاب الأليم***"، لكن الصم مثل حاشية السلطان لا يسمعونهم. فكأن أهل الرفض "النزر" ما زالت على أعينهم غشاوة، لم يصلوا بعد إلى الوادي السابع حيث ستتكشَّف لهم بعض الأوهام التي كانت محجوبة عنهم، مما ستظهر نتائجه عليهم في النهاء الأدنى، فيتفرقون أيادي سبإ.

*

في اليوم الثالث والمرحلة الثالثة من البحث عن سبيل للخروج من المأزق اكتشفوا وادي الرحيل: "***في مراسي النعاس قرب العدوة المنسية بين البحر والبحر وصلنا وادي الرحيل***". وهناك بدؤوا يكتشفون بعض حقيقة أنفسهم، وكم هي شاسعة المسافة بينهم وبين هدفهم: جمال الحرية ونبوغ الإبداع.

أول ما رأوا في هذا الوادي "***فتاة وحيدة تُشرق جمالاً ونبوغاً***"، تدفن جمالها ونبوغها في الوادي، وهي تجسيد لروح النضال الباقية من الأجيال السابقة، رغم محاولات القضاء عليها. قال الذي له علم بالسلطان: "***هذه هي جوى لم يشفع لها جمالها ونبوغها عند السلطان***"، لأن "***أول ما يمقته السلطان الجمال والنبوغ***" لقد حكم عليها بدفن جمالها ونبوغها في وادي الرحيل: المنفى الدائم. ولا رفيق لها في هذا الوادي غير الرحيل مُجسداً في اليأس والهروب والتلون وأشباح السلطان وأشباح حاشيته وأشباح الرؤوس والنهود والقلوب المقطعة، وأشباح الخوف وأشباح الحفاة العراة الذين يجلدهم جلّادو السلطان على مرِّ الزمن، وكلها أوهام وأشباح تعكس أخيلة العدم.

سألت الفتاة القادمين: "***أأهل رفض أنتم؟***" قالوا نعم. قالت: "***للسلطان أم لأحد أسمائه؟***"، وفسّرتْ ذلك بأن الذين رفضوا السلطان (أي رفضوا حكمه جملة) من قبل، قضى عليهم، والذين رفضوا أحد أسمائه (أي إقصاءه لهم من زمرة المقربين منه) احتواهم وضمَّهم لحاشيته.

أخبرتهم أن طريقهم لم يُعبَّد بعد، ولن يجدوه قبل أن يجدوا أنفسهم، ولـن يجـدوا أنفسهم قبل أن يغتسلوا، إذ عندما يغتسلون يكتشفون أنهم ما زالوا ينظـرون بعيون السلطان، ويسمعون بآذانه، وعندما أنكروا هذه التهمة نبَّهتهـم إلـى أن تماثيـل السلطان معلقةً على جباههم، فاكتشفوا أنها كذلك فعلاً، فبلغوا غايـة الدهشة. وأخبرتهم أن السلطان يكره السر كما يكره الجهر، لذلك فهـو يمقت النجم ووادیه، ويعادي الأمل وأفقه.

ولكنهم رغم ذلك أظهروا الحماس والتحدي؛ فقالوا إنهم سيهزمون السلطان ويكسرون شوكته.

فردّتْ عليهم: "***هلّا استحييتم من أنفسكم فسكتّم؟ إنكم تنظرون بعيون السلطان وتسمعون بآذانه القوا التماثيل أرضاً واحرقوها***"، فعاد الصمت، ثم ظهرت أصواتٌ غريبة مخيفة، لعلها أشباح الحيرة والشك، إذ أدركوا أنهم لم يكونوا يعون منزلتهم، فهم ما زالوا من حاشية السلطان، وإن كانوا مغاضبين له.

*

فـي اليـوم الـرابع اكتشفوا وادي الصخرة: (الصخرة: = الطريق المسدود/ العائـق): "***صخرة مرمية بتيه قاص، تسامرها عصور فانية متراصة من صفوف مـن الأزمنة الضائعة حيث بلغهم أن السلطان قد نزل بنفسه تحفُّه قرون جاءت من خلف البحر لتنسفهم نسفاً***".

وخلف الصخرة جرتْ مواجهةُ حقيقة الذات، حيث يحلُّ الأنا محل النَحـــن: البيئـــــة رافضة، والمجتمع غير متجاوب، بل متآمر، أليس "***الصمت أولى***" كما نصحت به النفس؟ أليس المجتمع مدار الصراع بين الطرفين: السلطان والنزر، ميالاً إلى قهر السلطان، "**سهل عليه الهوان**" لطول ما عانى منه، كأنه "**خلق له**"، ميالاً إلى خذلان من لم يرض الهوان، بل وإلى الوقيعة به: "***ثمة بتلك الساعة وذاك المقام بصرت بكم، للطلح صمغه، وللنخيل تمره، ولنا تيهنا، قدح ماء ... سألكم هؤلاء، لقد أجهزتم على رفاق ما سألوكم إلا قدح ماء، بل رضوا أن تقتلوهم جهاراً نهاراً، على أن تُحسنوا القتلة. وحدها الدنية ما رضوا بشربها***".

كانت كلمات المجتمع مؤلمة لأنها صوت الخذلان: الوشاية، والوقيعة، والسادية، والسباب، وكلها أفعال أصابع يده الغادرة: "***يدٌ أصابعها أربعة بلا خامس، كأصابع المردة في الأساطير الشعبية: أصغرها: خنصر: جني يقتل ولا يرى/ يليه بنصر جهنمي يقتل ويرى/ تليهما وسطى: تنغرز فيما لمست/ وأخيرا سبابة، هي أفعى بالسم تنفث***".

هدَّدني مخاطبي الذي لم أره (وليّ)[49]: أن "***الأمر قادم***"، ولم يمهلني لأخبره عن "***ويلات تتآمر في أهلي***"، بل سخر مني ومضى؛ فـ"***تنابزتُ***

(49) الوليّ في الميثيولوجيا الموريتانية هو شخص يطَّلع على الغيب، (ولا يعلم الغيب إلا الله).

بالألقاب مع القهر وتمرَّستُ بمجاهدته ومناجزته"، فنحن ملتحمان، وظـــلَّ يدعـو للعدم، وينشر اليأس، ويملأ الأرض ريحاً وسراباً، لكن "***الصحراء على قحطها وجفائها مترعة بما تكتم***" تخبِّئ أسراراً، والأيام تتمخَّض "***صامتة تحجب آهاتها وهي بها طافحة***"، فاشتداد الأزمة قد يكون إيذاناً ولو بعد مراحل، بانفراجها وانبلاج الفجر بعد اشتداد ظلامها، أي باللحظة الفارقة التي سيتخلص فيها الحق (ابن الفارقة) من الباطل (بقية زمرة الرفض).

*

في اليوم الخامس الوصول إلى وادي النهر: (= المجتمع موضوع الصراع بين المتصارعين).

النهر: ملح يمطر الظلام ويزرع الماضي: "***علقم من القحط ... يمطر ضفافه بليل بهيم، وحوله تجمعت أنياب تنغرز في الأرض، تزرع الأمس والهزيع***".

قرارته جسور مسدودة من أقدام العابرين التي تخرمتْ وتناثرتْ عدماً، وشبح عملاق أكل ذاته حتى أصبح عظاماً نخرةً وركاماً من الأحرف والآمال التي تحولتْ رماداً مُغطّى بالهوان والمذلة.

بدتْ لهم في قاع النهر جمجمة، والجمجمة مركز طاقتي الخيال المبدع، والعقل المنظم عند الإنسان، لكنها جمجمة غريقة يُخيِّم حولها الكسل فتخبو جذوة الخيال وانعدام الفعل فيتعطل عمل العقل، وفوقها

الغرق والعويل البائس، قال الذي عنده علم بالسلطان (قائدهم في هذا الوادي): "***تلك الجمجمة تمجُّ الحروف الصقيلة، إنها عين الهلع عند السلطان***" التي يرى بها الأشياء، بعد أن غسلها، بعد أن فرَّغها من طاقتي الخيال والعقل، فهو يحب الجماجم المفرغة لأنه ساديٌّ يكره الحياة والأحياء، ويكرهها مشحونة، لخوفه منها.

تساءلتْ الجمجمة: "***أما آن للدّيك أن يؤذّن؟***" مؤذناً بفجر جديد منتظر، فردّوا عليها بأنه أذّن مرات، فردَّتْ بأنها والنهر كانا يعرفان أنه سيؤذن، فردّوا عليها، بأن النهر لم يستجب فيُصلّي، فردَّتْ بأن غاض لأنه لا يستطيع الوضوء بالدماء أو يتيمم باللّظى، فاعترضوا على اعتذارها عن سلبية النهر، بأنه أصلاً من حاشية السلطان، فردَّتْ عليهم: "***إنكم قوم تجهلون، ألم تعرفوا أن ذلك قناع النهر وليس وجهه***"، كلُّ ما في الأمر أن منابعه وعيونه جفّتْ، وأن ضفافه لم تعد تنبتُ إلا شجر جهنم "***رؤوس الشياطين***"[50]، فغدا ميتاً يتحرك ساكناً، بعد أن كان مُترعاً بالآمال العريضة والأحـــلام المنفتحـــة على المستقبل الواعد؛ فردّوا عليها بأن "***الأحلام لا تموت***"، فردَّت عليهم ساخرةً بأن الكثيرين جاؤوا من قبلهم، بمن فيهم هي، وكانوا يقولون أكثر مما يقول هؤلاء الآن، ولكن السُّلطان سلبهم كل آمالهم، وجعل طريقهم وحلاً وجمراً، وختمت

---

(50) لم تعد تنبت غير شجرة الزقوم ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨﴾ (سورة الصافات).

بالقول: "***رحم الله النهر مات يحمل سرَّه***"، ثم صاحتْ: "***ها هي زبانية السلطان أقبلتْ***"، فأيقنوا بالهلاك حتى صلّوا على أنفسهم "***صلاة الغائب***"، فرأوا هولاً هائلاً لكن الجمجمة أمرتْهم بالتخفّي من دخان الصلوات الحريقة: "***لتختبئوا في أنفسكم، ولتلبسوا ذواتكم، أما ترون أن هذا اللهب بلا ضياء؟***" و"***ما لا ضياء له دخانه عابر ومُنتهٍ، فرقٌ بين عبور الدخان وعبور الضياء، وبين انتهاء الدخان وانتهاء الضياء***". وعندما سألوها عن موقعهم من اللهب والدخان، اتّهمتهم بأن أمرهم فيه التباس، فإذا كانوا رافضين حقاً فعليهم أن يغالبوا اللهب، فزبانية السلطان "***يأس يمتطي اللظى***"، ولكن الذي عنده علم بالسلطان ردَّ عليها: "***أنتِ أيضاً غضضت البصر عن سحل البلاد والعباد***"، فردَّتْ عليه: "***إنك ممن لا يقرأ لغة الصمت. إني أتحدث صمتاً***"، فردَّ عليها بأن"***السلطان يحبّ الصمت، لذلك حول كل شيء إلى صمت وابتدع وادي الصمت، فكيف يجدي معه الصمت؟***"، فتشبَّثتْ بموقفها قائلة: "***ليس لي إلا الصمت***" وأخذت تبكي. واختُتم الموقف مع الجمجمة في وادي النهر بقول النزر عن أنفسهم: "***أخذنا نختبئ في أنفسنا... هممنا أن نلتهب فعجزنا ووقعت الواقعة***".

*

في اليوم السادس الوصول إلى وادي الهزيع: (ذروة المأساة).

النوم، الهزيع، الأمواج، الرمال، المتاهة، المحال، التفاهة، المأتم، النواح، الفزع، المأساة، الغرق، الانفجار، الهاوية، النسيان، المروق،

الغياهب المستعرة، الركن الميت، الجراح الغائرة، اختلاط الحابل بالنابل، المدائن المنفطرة: معجم يعكس مخاضاً مليئاً بالآلام والأحلام المزعجة والكوابيس: المغارات السابعة بها عصبة، طبق قاتل، قوم لا عظام لهم، جلود سمينة تمتص الموج، بين العصبة والقوم قطع من الليل المظلم يظهر فيها الرحيل هائماً في العدم والمذلة: "***كانت ساعة هي المتاهة الصريحة...الكون كله استحال قطعاً من المحال النائح... تكتب التفاهة بحروف سافرة*** " وانتشرت الفوضى في كل شيء، "***هكذا تتربَّع المأساة الظافرة عرقًا ثابت الأقدام، مُتَبَدِ الخطوات***"، ولكن من وراء أهوال المأساة يبدو بصيص أمل يكاد يتلاشى مجسداً في: النجم/ الأمل، وقد هلّ... وجوى: روح الثورة والتغيير، وهي تحمل مدائـــن من المآسي، والنهر: المجتمع، وهو يجر عظامه خلفهما، وكأنها طقوس وكائنات تحترق بخوراً من أجل ولادة بصيص أمل جديد: " ***لحظة تائهة قد التحفتها الأودية وتماهت معها، يبدو في اللحظة النجم السحيق وقد هلّ مثل الصلاة الحريقة، ثم تبدو جوى تحمل في الفزع والوجع مدائن من المآسي، وفي أقصى الموكب يبدو النهر هزيلاً يجرّ عظامه***".

*

في اليوم السابع والوادي السابع: (مواجهة الذات في أبعادها المتعددة).

دخل "النزر" الوادي السابع خفي الاسم، وقد ألقى جنود السلطان القبض عليهم، فهم يسوقونهم إلى النار التي أضرمت بين تلَّيْن ليرموا

فيها، و"***حينها أخذت أوهامٌ وأرواحٌ تائهة تمر أمامنا***"، وعند كل موقفٍ حرج يحتدم الصراع بين المرء وذاته، فيبدأ يحاورها أو تبدأ تحاوره، تغريه كنوازع أولية مجنونة، وتلومه كعواطف انفعالية عذرية تشجعه، وتنصحه كبصيرة مجربة تبصره، فيتوهم أنه يحاور في كل موقف شخصاً مختلفاً، هو في الموقف الأول شخص مجنون، وفي الثاني عذراء شفافة، وفي الثالث عجوز مجربة.

في الموقف الأول ظهر المجنون، خلفه عذراء صامتة، تطغى عليه الأنانية والأهواء، والخزعبلات البعيدة عن العقل والمنطق، يخاطبهم من داخل كل منهم: "***من يعبّ من كأسي ير ما أرى: أولى بالعالم أن يرتحل وأولى بنا أن ننتحر، ليس في الحياة رغبة ومن ذا الذي يرغب في الشقاء***". فهو يدعو إلى الشرب من كأس الجنون والهروب من الحياة، بل وإلى الانتحار، يشرح لابن الحاضرة ومن خلاله، لكل منهم، طريقة هذا الشرب/ "العبّ": "***خطوات العَبِّ أربع: شرب، ارتواء، سكر، تجل، ولكن لا أحسبك تريد الانتهاء***". وعندما يردُّ عليه مخاطبه بأن همه "***الابتداء***" ... لا الانتهاء، يردُّ عليه: "***ذلك ما بدا. لا أرى عليك علامات الانتهاء والذي يَعبُّ يكمل انتهاؤه***"، فهو مضطرب متناقض يحتقر نفسه ويتعالى على الكل: "***...أنا...كيان تافه ولكن لست أرى في الأرض غيري سلطاناً. ليس لكم وجود أنا وحدي الموجود والوجود، أنا أنا، من يرني ير العوالم الحقّة، ير الأبهة الكبرى في ساعة النشوة***"..، وهو زيادة على ذلك مُدَّع: "***... لولا هذه الفاتنة لتعرّيت لكم حتى تعرفوا من أنا. لولاها لقلتُ لكم سر السلطان***" ... "***والحرف، وبه***

أقسم، لو كان السلطان نظر إليّ ساعة المكاشفة وأنصتَ للعصافير، لكان سافر إلى الجزيرة البعيدة وكفاكم العناء". وهو إضافة إلى كل ذلك انهزامي يدعو إلى الاستسلام: "***أنتم أيضا مثلي، حشم وخدم أنتم. تعالوا معا لنعبّ من الرمل ونسكت***".

أما الموقف الثاني فقد ظهرت العذراء، والعذرية صفاء ونقاء وفطرية، ظهرت "***عارية كالحق***"[51]، ذكـرى من عنفوان الماضي وحنين إليه: "***إن المدائن قد خارت وتاهت، أذكر ذلك الشتاء البعيد حين كاد كل شيء أن يصبح شيئاً، يومها ناديت على القلب أن يخفق، فخفق، ولكن صاحبه هرب، وبالشتاء التحف، وفيه لدمعه هرق***"، وما زالت تحلم بعودة ذلك الماضي، فعندما تمنّى ابن الحاضرة أن يكون الشتاء مُقدمّة للربيع، ردت عليه بأن الأمنيات لا تكفي، إذا لم يصحبها عمل وإرادة، فـ"***من يقبل بالشتاء يظل في الشتاء، ومن يتوقف في البحر يغرق***"، فالمسألة مرتبطة بالإرادة، والقدرة على رؤية المستقبل، ولعل المستقبل يُخبّئ أشياء يَحول ضبابٌ كثيف دون رؤيتها ممن لا يملك البصيرة، لذلك: "***عجبتُ لمن يضرب في الأرض حيناً، كيف لا يرى الأودية والجبال، وكيف لا يسمع أحاديث العصافير، وينصت لأناشيدها***". فمن ينظر ببصيرة الروح العذرية مثلها، يرَ الضوء في نهاية النفق: "***في الغسق أُبصر روحي تسافر بعيدا فتتقهقر ولكن لا تمَّحي. انظروا في المرايا المتكسرة تبصروا ذلك الهارب المجهول الذي كان أملاً فانكتم***". أما هم فكأنهم لم يرجعوا إلى ذواتهم

(51) المصدر نفسه والعبارة مَثَلٌ فرنسي [Nu comme la vérité] يُضرب للوضوح.

القريبة منهم، فكيف بمن لم يكتشف ذاته، رغم وضوحها، أن يرى المستقبل الموارب. "***كأني بكم لم تبصروا بعد ذواتكم، ألا إنها عارية تستجير بكم***"، من لم يعش هزيع الحيرة لن يبصر نور المعرفة، فالحيرة خيال المعرفة: "***...ليس للهزيع إلا أن يتضافر ويزهو؛ فما كان له انتهى له، وما فيه انغرز فيه، وما عداه نشأ منه، وإنه لهزيع يشمل، يحف، يضم، يقضم***".. فـ"***الهزيع ستر***"، و"***الستر مكاشفة أولاً، الستر إبصار***" والحُرُّ لا يستسلم عندما تضيق أمامه السبل: "***تموت الحرة...***"[52]، وهنا ظهر المجنون يتبع العذراء بعد أن كان أمامها في بداية المشهد، فالانفعال الغريزي والانفعال العاطفي، قوتان متناقضتان في الإنسان، ولكن لا وجود لإحداهما بمعزل عن الأخرى عندما تندفع إحداهما تتخفى الأخرى تلقائياً خلفها، شأنهما في ذلك شأن الانفعال والعقل. ظهرا معاً وهما يتبعان العجوز التي كانت مختفية أثناء اندفاعتهما. وهكذا تفعل البصيرة عندما يندفع الانفعال: "***همَّ المجنون بالعذراء وهمَّتْ به لولا أن رأيا الفصال يلتحفهما صاداً رادّاً كل وصال***"، النار والماء متناقضان، متلازمان، وعندما يطلبان الامتزاج يتحول الماء إلى بخار وتتحول النار إلى رماد، والاستقطاب بينهما أزلي: تقول العذراء للمجنون: "***لما كنتَ إياي وكنتُ إياك، ولفظتُ غيرك ورفضتَ غيري، ورأينا العزلة مطلباً للوصال، والوحدة مولداً للتوحد، اعتقدتُ وإياك أن الحِين حان، وأن***

(52) المصدر نفسه وهنا يشير إلى المثل السائر: "تموت الحرة ولا تأكل بثديها، وتأبى الدنية ولو اضطرت إليها".

اليقين حضر، فما كان الحين ولا اليقين إلا أجلاً لانقشاع وهم قديم"، ثم تقول: ***" لمّا بقينا وجهاً لوجه، إذا بكلينا يريد أن ينفصل عن ذاته، يريد أن يتمزّق... كأني أفر منك كي لا أكون، وكأنك مني تفرّ كي لا تكون. إنها النهاية قبل المنتهى... إني أراني عن ذاتي أنفصل "*** . فيعترض عليها المجنون ***"لو كان لنا ذلك لجاء الانفصال مانعاً من الفصال"***، فهما لم ينفصلا، فما جرى لهما هو فصال: فطام، والفطام لا يقتضي الانفصال، لكنها هي ترى أن لكلٍ منهما كيانه المستقل: ***"هل تراني أصير إلا الكيان الذي كنتَ، وهل تصبح أنت إلا الطينة التي كنتُ؟ "*** لكنه هو يرى أنها تغيرت ***"ما أنت بالتي كنت من قبل"***، فاستوضحته عن قصده، فرد: ***"لا أعني إلا ما قلته أنت ذاتك، أعني أن الحين واليقين بدلاً ما كنا نظن ونحسب"***، وهنا ***"تعَرّى مثلَها فلم يُبقِ في الستر من جسمه شيئاً"***، فهل معنى هذا التعرّي أنه تأثَّر بالصفاء وتخلّى عن الادعاء؟ على كلٍ، سارا معاً في الظروف الصعبة التي تحفهما، دون أن يكون أحدهما يسيرٍ خلف الآخر: ***"بدت العذراء صامتة والمجنون باكياً يسيران لا ثالث لهما إلا غيومٌ تُغطّيهما عاطشة، وتلالٌ تحفُّهما لاهثة، وبحر يحاربهما عاقراً، وكل شيء يمتلئ عدماً محضاً"*** . ولعل هدوء الصراع هذا هو ما جعل ابن الحاضرة[53] ييأس ويقول: ***"حين يقف الهزيع هذا الموقف ويصل ذروته فماذا نستطيع أن نرى"***، فيردُّ عليه ابن الفارقة[54] ساخراً ظهور

---

(53) الحضور قرب وربما انجذاب ثم استتباع.

(54) التي تفرق بين الحق والباطل: التمايز والاختلاف والتميز.

أمارات الخور عليه: "***مثلك ليس بالذي يرى، مثلك حجبت عيناه وفي أذنيه وقر، مثلك يردد ويولول ويصفق***"، فيردُّ ابن الحاضرة بأن هذا اللوم وهذه القسوة منه، هما من علامات شعوره بالعجز: " ***إنك لما عجزت عن مكاشفة السلطان وجهاً لوجه بما هو أهل لسماعه، انقلب عجزك قدرة على تقريعي***".

أما الموقف الثالث فقد ظهر فيه صوت البصيرة والتجربة (العجوز) يخاطب الكل قائلاً: "***هلّت ساعة الامّحاء من دق الناقوس فأخرجت الأرض البدء. جوى أمة وحدها. فإن تُبصروا تفقهوا***"، ولكنه صوت يائس من أنهم سيبصرون مثلما أبصرت جوى فسلكت سبيل الرفض بلا رجعة، لذلك تخاطبهم: " ***اضحكوا قليلاً وابكوا كثيراً***"، فهم لا يدركون الموقف الذي هم فيه، يتصورون أنفسهم أبناء زمنهم ولا يدركون أنهم يحملون الماضي الاستبدادي ماضي السلطان الذي يستعبد الرعية: "***وهذا الزمن الذي تجرون، أفلا ترون فيه قرع السلطان؟***" وعندما اعترض عليها ابن الحاضرة بأن " ***ليس ثمة بد من ذلك***". رأت في اعتراضه ما يوحي بأن مصيره الانضمام للسلطان: " ***لعلك عازم أمرك على وصاله***"، وعادت مبتئسةً يائسةً ولكنها مصمِّمة على أن الطريق الصحيح هو الطريق الصعب، هو طريق جوى: "***غرباء أنتم، والوجع يهدكم، طوبى للغرباء، طوبى لجوى***"، فهي خبرت بعض مدعي الممانعة والمتظاهرين بالرفض، وعرفت أن الكثيرين منهم "***أبناء حاضرة***"، لا يملكون الصبر ولا الأناة، يبحثون عن منافع سريعة، ويسعون إلى لفت أنظار ذوي السلطان إليهم ليقربوهم بسرعة، لذلك سقطوا بسرعة

وصاروا " ***أشد على الرفض من السلطان، أولئك كنا عرفناهم فتبيَّنا أمرهم، وكأيّ من رهط خرج وخطب هرجاً ومرجاً ثم أصابه الوهن من بعد"*** ، وعندما اعترض ابن الحاضرة على تلميحها، بأنه يحمل غمزاً في قناتهم، وشك في تصميمهم، ردت عليه: "***ليس في الشك من شر لو كان وجهاً من أوجه اليقين***"، وأكَّدتْ أن الطريق صعب وشاق، بل ومتاهة، وعلى كل أن يشق طريقه بنفسه، وفعل الشق أهم من الطريق نفسه، فالفعل في ذاته أهم من المفعول وأنبل، وسابق عليه، (على المرء أن يسعى ويبذل جهده وليس عليه أن يساعده الدهر)، فالفعل في ذاته وَعْدٌ أكيد إن أعطي ما يستحق من عناية، فالحياة ليست عقيماً، إن وجدت من يملك البصيرة التي ترى ما وراء المظاهر: " ***إني أرجوكم أن تنظروا الأفق وتبصروا ذلك النجم الثاقب والنيزك الطارق، إنهما حابلان بغير ما ترون، وخلفهما تتلألأ عوالم هي لكم إن سبقتموها، وهي عليكم إن طلبتموها، اختاروا بين التكسب والكسب، أن يكون لكم أو أن تكونوا***".

يبقى أن كل إنسان عليه أن يشق طريقاً جديداً يبتكره، وليس بالضرورة طريقاً محدداً سبقت تجربته، فهو فيه تابع، بل طريق يبتدعه ويحدد بنفسه خط سيره: " ***إني لا أكشف عن طريق ولكني أريدكم أن تشقوا طريقاً، إما أن تختاروا أن تتعلقوا بالنيزك يسقط أنى شاء، وإما أن تحملوه وتضعوه حيث شئتم***". وختمت خطابها بأن طريق الخير والجمال والنبوغ هو طريق الرفض، طريق جوى الذي لا يوارب، وهو مناقض لطريق السلطان طريق الجموع الخانعة للسلطان "***يمضغها الركوع خاشعةً، يقتلها الجوع، والزاعمة تنهشها نهش الأسود الضارية***".

هذا الصراع بين الرضوخ والاستمرار، بين رفع الراية البيضاء والاستمرار في المقاومة، واجه في النهاية عقبة كأداء، فبعد اجتياز سبع مراحل، وسبعة أودية، لم يلحْ في الأفق ضوء في نهاية النفق، بل تحولت العقبة إلى جبل من الحيرة والشك يكسرُ كل إرادة: "***رأينا أنفسنا بعد الأوهام أطيافاً***"، لأن الأودية السبعة تقمَّصتهم فأصبحوا يرونها في كل شيء، بل تجسدت لهم، لا في صخرة فقط، كما كان في اليوم الرابع، وإنما في جبل بكامله عجزوا عن زحزحته من طريقهم: "***الأودية السبعة قد تسللت خلفنا حتى إذا نزلنا بأقصى سابعها خرج لنا جبلٌ ضخمٌ هرم***" .... "***هممنا أن نهدمه بالمعاول فارتد علينا المجن وما ضربنا إلا أنفسنا***". بلغت بهم الحيرة غايتها، فلم يعودوا يعرفون موقعهم من هذه الأودية التي تَلبَّستْهم، ولا من الجبل الذي كانها: "***ارتج علينا وأخذتنا الحيرة في أمر أطيافنا، لا نعرف لها وجهاً من قفا، ولا ندري أتسلسلت الأودية السبعة خلفها أم أمامها، أم الأودية [القهر/ الخيبة/ التيه/ الانغلاق/ التمزق/ العمى/ الوهم] هي ذاتها الجبل، وكأنه انتسب لنا فعرفناه وإنا به لحديثو عهد***"، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون: "***سألنا (الجنة بن أبي المتيم) عن الجبل***"، فكان جوابه محبطاً جارحاً مؤلماً ينم عن اضطراب وضيق نفس شديدين: "***رمى زبد البحر بنظرة، وحصي الرمال بأخرى، وتأمل السماء ملياً، ثم قال كلما إبراً تفرقت أحرفه بيصاً***"، وبدت لهم العدة تُهيأ لحرقهم بالطريقة نفسها التي جرت لخليل الرحمن عندما كفر بأصنامهم[55]، "***نظرنا الأصفاد والأغلال***

(55) وفق ما وصفه القرآن الكريم: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ =

والتّلين اللذين نرمى بينهما ". وسيكون هذا الفعل الظالم خطيئة سببها القهر والخيبة والتيه والانغلاق والتمزق والعمى والوهم، أي الأودية ذاتها، فـ " ***الأودية غارقة في الخطيئة، طائعة للوجع بين الزبد والحصي، يمتطيها النفي وهي تئن احتفاء به*** ". ولما سألوا زميلهم الجنة بن أبي المتيم[56]: لماذا آثر الرحيل والتنكر لقناعاته إلى غير رجعة؟ لم يُولّ سؤالهم اهتماماً، بل تراءتْ له صورة ما يرفل فيه الآخر وراء البحر من نعمة، وما يرزح هو تحته من نقمة: " ***سألنا الجنة لم طلّق نفسه وأظهر منها، ولبس زبد البحر؟ فما نظنه أبه لنا، إنما أهاج له ذكر البحر شوقاً لم يفارقه منذ عهد، وذكر، كمن سيحادث نفسه، أن الروميات يلتحفن اللؤلؤ والمرجان خلف البحر*** "، فبلغ بهم اليأس منتهاه، وكاد يسلبهم كل معنى للتحمل ولنكران الذات، لكن كل الطرق مسدودة بما فيها خط الرجعة، وقد ألقيت في أرجلهم الأصفاد: " ***اليأس قد رمى التواضع فراسخ، وجمع أطراف المكان من حولنا، هل من موج يقذف بنا لننفض، أو من رياح تحملنا لنرتد؟ حتى الارتكاس عسر. هل من ستر غير القهر أو مناج غير البكاء؟ ما أبهى الفرار لولا الأصفاد! أودية سبعة، وأوهام سبعة، وأنياب سبعة. والفرار، كما الماء، أفتى السلطان أنه حرام ثلاثا*** ". واستوى في انسداد السبل من تمرد على الأودية ومن لم يتمرَّد، لأن "***هذه الأرض بخيلة، عاقرة، بائرة وبغي***" فلا ملجأ ولا منجى، الكل ظهره إلى

= وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ ﴾ (سورة الأنبياء)..

(56) وهو وصولي متيم بالرفاهية، اتخذ الرفض جنة ليصل بسرعة إلى غايته.

الحائط، ينتظر المنقذ[57]: "***لما ظهر اللظى كما هو (.....) صاح الجنة بن أبي المتيم: يا مهدي الجبل***"[58]، وردَّ الباقون عليه بصيحةٍ مماثلة تبحث عن مخرج بين العذاب والتيه، وهل بعد كل هذا من أمل: "***صحنا هل من سبيل بين الحصى والزبد؟ هل بعد هذا الوجع من طمع؟ وهل في هذا الهزيع من شفيع؟***"

*

عند النهاء الأدنى بعد المراحل السبع: تساقط الفريق "النزر" حسرى:

- اختفت (جوى) بعد كفاحها الطويل، ولم تترك أثرا سوى "***سفر ممحو***".
- أما (ابن الحاضرة)، فقد اكتشف أخيراً أن اتّهام جوى لهم بأنهم ما زالوا ينظرون بعين السلطان لم يكن تجنياً عليهم، وأنه لا فكاك من السلطان، وأنه قريبٌ من السلطان وحزبه، فاقتنع بخط السلطان وسداد أفعاله: "***حَسْبُ الرؤوس والنهود والقلوب أن***

(57) المجتمع العاجز يطمئن نفسه دائماً، بأن مخلصاً سيأتي ليخلصه مما هو فيه: مهدي أو مصلح أو غيرهما.

(58) أودية العطش. يا مهدي الجبل: اقتباس من مقولة عمر بن الخطاب (رض): "يا سارية الجبل" أي احتَم بالجبل، وقصتها معروفة في كتب الأخبار وهي أن سارية بن زنيم الدؤلي أحد قادة جيوش المسلمين في فتوحات بلاد الفرس سنة 645 م/ 23هـ، كان يقاتل على أبواب نهاوند فتكاثر عليه الأعداء. وفي اليوم نفسه كان عمر بن الخطاب يخطب يوم الجمعة في المدينة، فإذا بعمر ينادي بأعلى صوته أثناء خطبته: "يا سارية الجبل، الجبل، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم" (راجع أحداث السنة 23 من خلافة عمر(رض) في الجزء 7 من كتاب البداية والنهاية لابن كثير).

تُقطَّعَ " ، فكفكف من طموحاته، واستمع لنصيحة " ***الخافضة ابن أبيه***"[59]، الذي روى له عن أبيه صدق ما أخبرهم به السلطان من أن " ***الرمل لذة للشاربين*** "، واستدلَّ على ذلك بأنه " ***ما من امرئ صعد جبل السلطان إلا وهمَّ أن يبقى***"، وهذا ما سبق أن تنبأتْ له به العجوز عندما قالت له: " ***لعلك عازم أمرك على وصاله*** " فلْينضمَّ إلى السلطان دون نظر إلى الوراء، وليضحِّ بضميره، فهو ثمن زهيد لـ "بغال معاوية"، وليقسم أنه لن يسير طول الدهر إلا على بطنه.

- أما (الجنة بن أبي المتيم) فقد ندم على الزمان الذي قضاه " ***في سبيل الرفض*** "، وغواية النهر قبل أن يكتشف أنه يخترق " ***في ضفة بحر قديم تحفّه مدن عجيبة وأنوار لم تكن*** "، مع أن عشق الحرية الذي " ***يمتد في أنسجته*** " كان " ***جُنَّة*** " بينه وبين الحياة " ***المتيم*** " بها، فلو كان دخل " ***الأودية لكان***"، ولكن فاتته الفرصة، ولم يعد قادراً على تقديم رِجلٍ ولا تأخير أخرى، وخلص به تأمله، إلى أنه لم يعُد له مكان، لا في الحياة كديمومة ترضي الجيب، ولا في الحياة كمعنى يرضي الضمير، فانتهى به المطاف إلى الانتحار، فخاطب نفسه قائلا: " ***احترقي يا نفس وافني يا ساعة*** ".

(59) الخافضة بن أبيه: سلسلة نسب للانخفاض والضعة توارثت الهوان فلن تنصح إلا بالهوان.

- أما (الذي له علم بالسلطان)[60] فلم يترك موقفاً يؤثر عنه أنه اتخذه بإرادته، فسجله بنفسه، كما فعل الآخرون، ولعله لفظ من قبل الجميع، فتشرد: " ***ذكر قوم أنهم رأوه بأرض الروم هائماً وحيداً ساء حاله وشاخ وابيضَّ رأسه***"، رام ملجأ له في الشرق، حيث "***حسب الشمس تطلع وظلت عيناه شاخصتين حتى نفد زاده*** " ولما لم يجد هناك ملجأً، و" ***رأى أبواب التوبة تُغلق واحداً واحداً*** " دونه، " ***غض بصره عن الشرق*** " وتوجه إلى الغرب " ***علَّ الشمس تطلع من مغربها***"و " ***صار يؤمُّ كل صباحٍ إحدى الحانات يؤذن في الروم صمتاً وينادمها***"، ويلعن حظه، لأنه لم يحصل من الغرب على ما حصل عليه غيره: "***يضرب وجهه بيديه ويقول: من هذه المدن استقدم السلطان لسانه وعصاه، ما فني الجنة ابن أبي المتيم إلا بأثداء الناهدات من نساء الروم***"، ولكن نفسه اللوامة ظلت تلومه على عدم الخضوع في الوقت المناسب إلى الحاشية، لذلك لما طلب منه " ***أن يلعن ابن الحاضرة***" الذي ارتدَّ عن النضال وانضم إلى السلطان " ***غضب ورفض***"، ولكن ضميره أيضا يؤنِّبه على عدم الصمود، لذلك عندما سألوه عن ابن الفارقة الذي صمد واستمر في النضال، رفض الكلام، إذ هو رفيقه الذي صحبه في النضال قبل أن يتخلّى

(60) العليم بأسرار السلطان، هل كان "مخبراً" مدسوساً عليهم من قبل السلطان وفق المصطلح الشعبي: "من أهل سر الحرف"؛ فالاسم مستوحى من اسم صاحب النبي سليمان (ع. س) الذي أتاه بعرش ملكة سبإ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (سورة النمل الآية 40).

عنه، أما عندما سئل عن جوى التي انقطعت أخبارها، وهي آخر ما سُئل عنه، فلم يكتف برفض الكلام فقط وإنما "***صمت طويلاً وكفكف دمعاً ومضى***"، يبكي على ضميره وكرامته اللذين ضيَّع دون أن يحقق المكاسب الوصولية التي دفعته لتضييعهما.

- أما (ابن الفارقة) فقد كتب في بداية النهاية (النهاء الأدنى) يتحدى النفي: "***ليس للنفي إلا أن يموت***". وأصر على أن الربيع قادم من وراء جليد الشتاء، وأن شمس الحرية والعتق والانتصار ستطلع بعد غروب الغابرين: "***أفل الآفلون وكنت عتيقاً يوم خسفت الطائفة***"، بل أقسم على أنه باقٍ راسخ القدمين على الأرض رغماً عن أودية العطش وزمان التيه: "***والنواح العظيم لن أبرح الأرض. أزفت الآزفة***[61] ***وأودية العطش غافلة***"...

في النهاية (النهاء الأقصى)، تلقى رسالة من مُرسلة، لعلها نفسه الناطقة، ترسم له معالم الطريق الطويل الذي اختار السير فيه وحيداً بعد أن تخلّى ضعفاء النفوس، فإذا كان مُصراً على الاستمرار، فعليه أن يكون سيلاً يجرف وأن يبذل وقته بسخاء مهراً للحضور، ويصحب السفر ويفرح به ليصل، أن لا يغتر بعقم الصحراء فهي تخبّئ الخصب، قد يرى الثمرة وقد لا يراها، لكن سيدرك أن الوصول إليها ممكن، وعندما يقبل الألم ويحاوره، يستصغر بنيات الطريق ويحتقرها، إذا تحدّى العقبات سيألفها فيتخذ من الخيبات دافعاً للتحدي، فمن العطش ينفجر الماء،

(61) اقتباس من الآية الكريمة ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ (سورة النجم).

ومن الشدة يولد الفرج، عليه أن يكون. ما زال متردِّداً رجله تتقدم ورجله الأخرى تتأخر[62]، لأنه في البداية، فلا بد أن يعتمد على واحدة منهما: الاعتماد على التي تتأخر أسهل، ولكن اختيار الأسهل يُفقده كل شيء، ليختر الموت في سبيل الحياة عن الموت في الحياة، وليمتط السؤال ويمضِ! ليختر الحل الأصعب ويتبع الحلم، ليكن الفارق بين عهدين ؛ فهو "ابن الفارقة" بين الحق والباطل. ليطوي الماضي الأليم، ويحتفي بالعطش إلى وعد المستقبل المختلف عما كان، ليتغنّ بالرحيل مع جوى: الجوى إلى المستقبل. عليه أن يخلِّد نفسه في كلماته. الكتابة قد تكون تسجيلاً للماضي وقد تكون خلقاً للمستقبل. الألم بوتقة الأمة التي تنصهر فيها فتتطهَّر من فروقها، وتتوحد في جسم واحد وحيد. عليه أن يحدِّد الهدف ويمتطي إليه طموحاً بلا حدود. وليبحثْ عن عالم جديد. وليرحل حتى يكتب أسفاراً من سجلات المستقبل. المنفى والرحيل يدفعانه إلى عوالم جديدة. الألم العظيم هو الذي يلد الأمل العظيم. لم يعرف بعد السفر على حقيقته؛ فليعْبر كل الأودية السبعة ويجاوزها، وليكتشف كل شيء ويتجاوز كل شيء. وحين ينتهي من كل شيء "***ارم وصيتي وتجاوزها***"؛ فتلك هي لحظة الانتصار الفارقة، ومسك ختام الرسالة هو: "***إياك، إياك سبعاً والسلطان***"، فإن رام وصاله فقد سلك سبيل من انحدر في الهاوية أما إن رفض الوصال، فقد اهتدى إلى السبيل الفارقة.

***

(62) فيه اقتباس من رسالة يزيد بن الوليد الأموي إلى بن عمه مروان عند ما علم أنه متلكئ في مبايعته: "أما بعد: فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت، والسلام" (العقد الفريد لابن عبد ربه ج5/ 208 م.م.).

أبرزت هذه القراءة قضايا كثيرة يطرحها هذا النص تلميحاً وتصريحاً حول العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الناشئة حديثاً، وهي قضايا قابلة للنقاش وتضارب الآراء باعتبار النص نصاً مفتوحاً على أكثر من قراءة.

من هذه القضايا مدى انطباق هذه الصورة على البنية الاجتماعية الحديثة في بلد بعينه كموريتانيا مثلاً، أي بلد يحاول عبور عتبات العصر الحديث، حاملاً معه ميراث السنين من تشوهات العلاقات بين السلطة الوازعة والمجتمع الذي من المفترض أن تضطلع بتنظيم العلاقات بين مكوناته وبينها وبينه.

السلطة الوازعة في أي نسق اجتماعي: من الأسرة: "رب الأسرة"، إلى القبيلة: شيخ القبيلة، إلى الدولة "السلطان"... تطمح بطبيعتها، إلى احتكار استخدام العنف[63]، واستخدامه ضد من لم يمتثل لأوامرها ويجتنب نواهيها ؛ هذه الأوامر والنواهي قد تكون مقنَّنة، في وثائق معروفة للجميع: قوانين، وقد تكون أوامر اعتباطية، لا تخضع لقاعدة محددة، غير مشيئة السلطان ومن في معناه، وبين هذين القطبين درجات بعضها أقرب إلى الأولى، وبعضها أقرب إلى الثانية، والدولة التي تسير في فلك الأول تعتبر دولة قانون وعدالة، والدولة التي تسير في فلك الثاني تعتبر دولة استبداد وظلم. وكل الدول الحديثة تدَّعي أنها تسير في الفلك الأول بحكم أن لكلٍّ منها دستوراً وقوانين تنظِّم الحقوق والواجبات،

(63) الدولة – حسب الفيلسوف الألماني ماكس فيبر (ت 1920)–هي التجمع السياسي الذي يحتكر العنف المادي ويعطيه الشرعية القانونية، المتمثلة أساسا في المحافظة على النظام الداخلي من جهة، والدفاع عن المجتمع ضد الأخطار الخارجية من جهة أخرى.

ولكن أغلب الدول حديثة النشأة تُصنَّف عملياً ضمن الفلك الثاني، لضعف تجربتها وغموض الحدود بين الحق والواجب لديها، فالحاكم غالباً ما يصل إلى الحكم بطريق أقرب إلى الصدفة، فيتصرف فيه على أنه غنيمة حصل عليها، والمحكوم فيها لضعف وعيه بحقوقه وواجباته مولع بتأليه الحاكم، فيحوله إلى طاغية رغماً عنه، إذ "كل قوم خالقو نيرونهم قيصر قيل له أم قيل كسرى"[64]، و"الظلم من شيم النفوس"[65]، فيتحول الحاكم وحاشيته إلى ورم سرطاني يتضخم بقدر ما يفتك ببقية جسم المجتمع، يُقطِّع أعناق المخالفين وأثداء نسائهم وقلوب أطفالهم ولو مجازاً، ويصنع منها جبلاً من الخوف يتربّع على قمته، مُحتمياً به من سيل دماء المظلومين، ولكن جذوة الثورة ضد الظلم تبقى تتربَّص به، تنتظر المنقذ، وتحفظه في الذاكرة الجمعية عبر الأساطير، ويظل "السلطان" وحاشيته يطاردون هذه الجذوة لإخمادها، حتى يدركهم أوارها، غير أنها ما إن تسقطهم حتى يطفو على السطح خليفة لهم يعيد السناريو نفسه، لأن المجتمع لم يصل لدرجة النضج القادرة على خلق بدائل قانونية على نحو ما توصلت إليه الشعوب المتقدمة بعد كفاح مرير استمر منذ القرن الرابع عشر الميلادي، ولم يصل إلى النموذج القانوني الموجود في الغرب اليوم، على علّاته، إلا منذ أقل من قرن. وعلى هذا النحو يمكن القول إن قمّة الهرم الاجتماعي في الكثير من البلدان المتخلفة، حاكماً كان أم

---

(64) بيت شعر للشاعر مطران خليل مطران (ت 1949م).

(65) (والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم)
بيت لأبي الطيب المتنبي(ت355هـ).

زعامة أيّا كانت، تعيش على جبل من الضحايا الاجتماعية، كما صور به السلطان هنا ولو مجازياً، وأن القاعدة الاجتماعية تعيش راضية بدرجة عالية من الهوان والمذلة والتنكيل، على نحو ما وصف ولو بصورة مجازية أيضاً، وأن حركة النخبة المقاومة للظلم، والتائقة إلى الحرية في المجتمع والقليلة العدد، مهددة باستمرار بعوامل الحتّ على مر الأجيال، وأن صراع الأجيال في هذه المجتمعات غالباً ما يؤول إلى التلاشي فلا يبقى من الأجيال الصاعدة التي تحمل آمال التجديد إلا قلة القلة مثل "جوى" التي اختفتْ هي أيضا فخلفها "ابن الفارقة" مما يعني أنه هو أيضا سيختفي يوماً ما مستخلفاً غيره، حتى تستمر جذوة الأمل حيّة على تعاقب الأجيال.

- ومن القضايا التي لمّح إليها النص أيضاً، أن المجتمعات في هذه البلدان الناشئة ميالة إلى الاستسلام للظلم وممارسة التقية مع كل ظالم، فهي تهلل له، مع أنها تحتفي خفية بالثائرين عليه، وتذكّي الأمل في نفوسهم على نحو ما نجد عند شيخ الوادي.

- ومنها أن هذه الصورة، وإن كانت تنطبق إلى هذا الحد أو ذاك، على المجتمع الموريتاني الذي تظهر ظلاله في النص من خلال ذكر الصحراء في أكثر من موضع من النص، ومن خلال بعض إشارات سيميائية تتناثر في ثنايا النص، تحيل إلى خصوصيات ثقافية ترجع للبيئة الموريتانية الخاصة، فإنها ليست خاصة به، فهي تنطبق أيضا على المجتمعات الشرقية جملةً بقدر ما تنطبق عليه، أي المجتمعات التي تمر بمرحلة التطور التي يمرُّ بها، ولعل أغلب الشعوب التي

تصنَّف الآن في خانة الأمم التي يحكمها القانون مرت بهذه المرحلة، بل إن أغلبها حديث عهد بها، فالنظم الديمقراطية الحديثة لم تقف على أقدامها، وتتخلص من ميراث الاستبداد وتأليه السلاطين، إلا بعد أكثر من قرن من قيام الثورتين الفرنسية 1789 والأمريكية 1773، وما ولَّدتا من اهتزازات ارتدادية.

- ومنها أن الصورة الكلية في هذه الرواية هي صورة فنية ساخرة، ومعنى ذلك أنها وإن بدت تبالغ في إظهار انحراف الشخصيات وخصائصهم ومميزاتهم، فذلك لأنها نقد اجتماعي وسياسي، ومن شأن كل نقدٍ اجتماعي فني أن يعتمد فن السخرية(66) الذي يُضخِّم الصورة لتجسيد الإيجابي والسلبي في الواقع الاجتماعي.

- ومن القضايا الفنية التي يطرحها هذا النص أيضاً، قضية التصنيف الأجناسي، فهو يصنِّف نفسه في خانة الجنس السردي، اعتماداً على طريقة سرد الأحداث في تسلسل زماني، سبعة أيام، تتحرك فيها وبها، شخصيات فاعلة في الأحداث من بداية النص لـ" لنهاء الأدنى" على الأقل، حيث تفرقت بها السبل، وشخصيات أخرى تستوطن كل الأودية: السلطان وسدنته وزبانيته وطبالوه، وضحايا نظامه المعذبون في الأرض المسحوقون: الشيخ وجوى، والجمجمة، وشخصيات أشباح فصامية هي أبعاد للشخصيات الأولى العابرة للأودية: الأوهام الثلاثة التي التقت بها في الوادي السابع.

(66) L'art de la caricature

والأحداث وزمانها وفاعلوها تجري ضمن الإطار المكاني: الأودية السبعة، معبرة كلها بأفعالها وفاعليها، وأشيائها وأماكنها عن منظور فكري محدد، هو صراع التحرر والتمرد مع الاستبداد والحيف: المظلوم الرافض للظلم مع الظالم المتشبث بظلمه. وبواسطة التماهي بين الشخصية والراوي في المنظور النفسي غالباً، وتقاطع في المنظور التعبيري بين الأساليب الثلاثة: غير المباشر، المباشر، غير المباشر الحر، في تداخل بينها يصل حد التماهي أحيانا: فهي تتأرجح بين مستوى الصمت والهمس ومستوى الإلقاء: مَن يخطب ومن يستمع، مَن يحاور آخر، ومن يحاور آخر هو نفسه، بحيث يبدو الأسلوب المباشر الحر تداولاً قولياً بين طرفين أو أطراف، ويغلب فيه على الراوي/ الشخصية ضمير الجمع، إلّا في "ترجمة الكتاب" والوادي السادس. ولكن شعرية القصيدة الإيحائية القائمة على الاستعارة الموسعة، والرمز، والإيقاع، والإيجاز، والتداعي الحر القائم على آلية الحلم وكناياته من جهة، وعلى حضور النص التراثي المستقى من روائع التراث العربي الإسلامي[67] غالباً، المشبع بإيحاءات تاريخية تحيل إلى مواقف وحوادث دالة، هي شعرية حاضرة في النص من أوله لآخره، والتداخل بين شعرية الرواية وشعرية القصيدة، بل والتماهي أحيانا، من أبرز سمات السرديات المعاصرة المميزة لها.

❋

(67) Les chefs-d'œuvre

نختم هذه القراءة بملاحظتين مرتبطتين بالسؤالين اللذين طرحنا في بدايتها:

الأولى/ أن النص يُقدم رؤيةً متمردةً على واقع اجتماعي مهيمن موروث من عصور الاستبداد الاجتماعي والسياسي، سدنته وحماته هم أول ضحاياه، واقع قوامه امتهان كرامة الإنسان، وهتك حرمته، ونشر الفساد والخراب والمذلّة والفقر والجهل والمعاناة. وهو واقع مناقض لقيم العدل والمساواة والحرية وكرامة الإنسان، التي تُحرِّر طاقات الإنسان ومواهبه، وتجعله قادراً على أن يصنع حاضره ومستقبله، على النحو الذي يضمن له كفرد وكمجتمع، حياة كريمة تليق بمن كرَّمه الله، واستخلفه في الأرض لينشر الخير والجمال والسكينة والرخاء.

الثانية/ أن هذه الرؤية قُدِّمت بأسلوب رمزي قائم على آليات تيار الوعي: توارد للأفكار يختلط فيه الوعي باللاوعي، ويتماهى فيه مخزون المعارف والتجارب بالأفكار والنظريات والاستنتاجات والاستدلالات، وتتداعى فيه العبارات، من كل المرجعيات والمستويات والأساليب: من مأثورات النصوص المقدسة، إلى شوارد الأبيات، وشواهد الأمثال والحكم، على نحو ما يحدث في تداعيات أحلام من هو ضليع في أكثر من ثقافة.